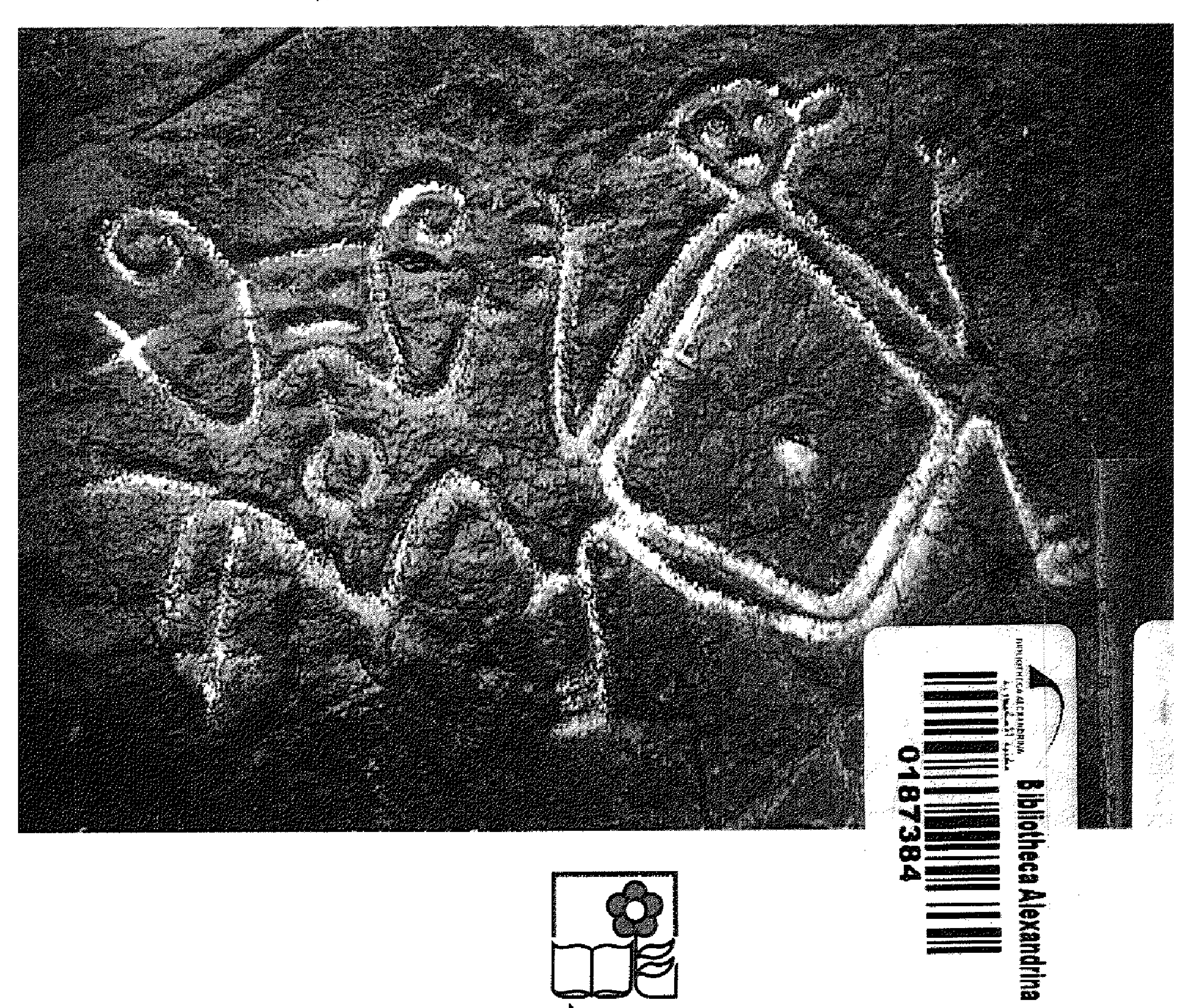
فضيل أبو النصر

الإنسان العالمي

العولمة والعالمية والنظام العالمي العادل



Bibliotheca Alexandrina
01873384

بيسان

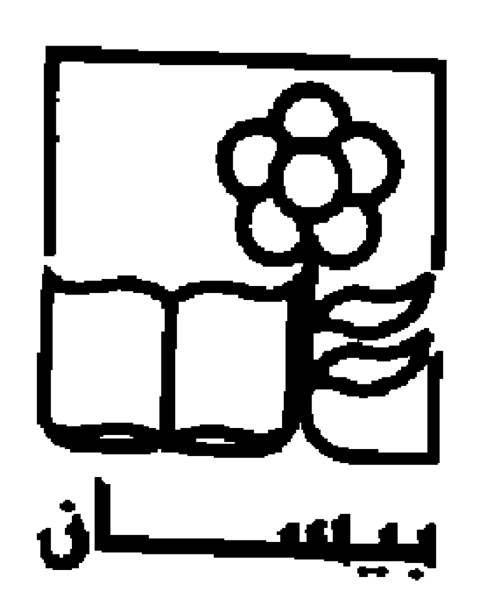
الإنسان العالمي

العولمة والعالمية والنظام العالمي العادل

فضيل أبو النصر

الإنسان العالمي

العولمة والعالمية والنظام العالمي العادل



* اسم الكتاب: الإنسان العالمي.
* تأليف: فضيل أبو النصر.
* الطبعة الأولى كانون الثاني (يناير) 2001 م.
* جميع الحقوق محفوظة © بيسان للنشر والتوزيع والاعلام. لا يجوز نشر اي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «إلكترونية، أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك. إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.
* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام
■ ص. ب 5261-13 بيروت ـ لبنان
■ هاتف: 351291-01 ـ فاكس 747089-1-961

الاهـــداء

الى حفيديّ زين وجاد
وكل الأحفاد لعلهم
يدركون ركب العالمية

المحتويات

الجزء الثالث

مقدمة

يعالج الكتاب موضوع الحرب والسلم والقضايا المتفرعة عنه خاصة قضية النظام العالمي الذي يشق طريقه الى الوجود بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة وزوال كل مظاهر المواجهة والعداء بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي سابقاً.

تحدث الرئيس الاميركي السابق، جورج بوش عن النظام العالمي الجديد الذي قام على أثر انتهاء الحرب الباردة. لكن الحديث عن هذا النظام ما لبث أن توقف تماماً مع انتقال السلطة الى الرئيس بيل كلنتون. مع هذا، نتساءل عن ماهية النظام الذي طبل له الرئيس بوش وزمر ويمارسه الرئيس كلنتون دون الإتيان على ذكره وما هو مصير النظام في العالم.

أولاً، إن النظام العالمي الجديد ليس نظاماً إذ ان الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة المهيمنة على القرار العالمي. بمعنى آخر إنه هيمنة دولة واحدة على مجريات الأمور في العالم دون منازع.

ثانياً، إنه أمر شاذ أن نطلق صفة «النظام» على وضع لا تتشارك فيه سوى دولة واحدة إذ يجب توافر طرفين أو أكثر حتى نسمي مثل هذا الوضع «نظاماً» وهذا أمر غير متوافر في الوقت الحاضر.

ثالثاً، عرف العالم على مر العصور شكلين من أشكال التفاعل بين الأمم: هيمنة قوة واحدة على الشأن الدولي وتوازن القوى الذي ساد حتى نهاية الحرب الباردة.

رابعاً، ان عالم اليوم بات يعيش أوضاعاً مختلفةً عما عرفته البشرية في الماضي مما يتطلب ايجاد نظام عالمي جديد لا يقوم على الهيمنة أو توازن القوى. توازن القوى أدى الى قيام حروب مدمرة وتوازن الرعب كان في معظم جوانبه أسوأ من الحرب المدمرة. والهيمنة لفريق واحد كانت دائماً مرفوضة لأنها تتوخى فقط مصلحة ذلك الفريق وتضرب بعرض الحائط مصالح الآخرين.

خامساً، ان النظام العالمي المنشود يتوجب ان يكون عادلاً ومتعدد الأقطاب.

سابعاً، ارتكزت الترتيبات الدولية الأمنية والسياسية والاقتصادية حتى الوقت الراهن على مفهوم الإنسان القومي والقومية بينما العالم يعيش أجواء العالمية والعولمة(*) بتكاملها واندماجها. لقد أثبتت القومية أنها الطريق الى الحرب ومختلف أنواع النزاعات المسلحة. لذا، نرى أن الإنسان العالمي، بشير النظام العالمي العادل، هو السبيل لقيام نظام عالمي جديد يعمل للاستقرار والتعاون والسلام.

ثامناً، إن النظام العالمي القائم على مفهوم الإنسان العالمي يدعّمه رأي عام عالمي بات يتوق الى السلام الحقيقي.

تاسعاً، إن النظام العالمي العتيد الذي ينظم علاقة الدول بعضها ببعض بصورة متوازنة وعادلة ما هو سوى مرحلة انتقالية نحو وضع أفضل بحيث يتعزز التعاون والتضامن فيصبح قيام الحكومة العالمية أمراً مرغوباً به وتطوراً منطقياً لأحداث العالم. في الحكومة العالمية تذوب كل الأنظمة كون الحاجة الى مثلها تنتفي.

(*) العولمة شكل من أشكال العالمية كونها تشمل العالم بأسره لكنها قائمة على نظام دولي جائر ويتسم بالهيمنة من قبل طرف على الأطراف الأخرى.

قد يتبادر الى ذهن البعض أن حديثنا عن العلاقات الدولية بهذه الصورة هو ضرب من ضروب الطوباوية الخيالية. لكننا نؤكد أن نظرتنا هي نظرة برغماتية تأخذ بعين الاعتبار واقع العالم دون أن تغفل الناحية المثالية. هذا هو ملخص بحثنا في «الإنسان العالمي: بشير النظام العالمي العادل».

فضيل أبو النصر
عين زحلتا ـ لبنان
٢٥ أيلول ـ سبتمبر ٢٠٠٠

الجزء الأول

في

النظام العالمي

الفصل الأول

في النظام والنظام العالمي والإنسان القومي

١ ـ جوهر النظام

النظام جوهر الكون والطبيعة والإنسان والمجتمع. فالكون والطبيعة قائمان وفق نظام دقيق صارم لا يحيدان عنه بتاتاً. فالأجرام السماوية تتحرك وفق نظام مبرمج يعود الى مئات ملايين السنين. وما ينطبق على الأجرام السماوية كافة ينطبق على المجموعة الشمسية التي يُشكل كوكبنا جزءاً أساسياً منها. فالمجموعة الشمسية تتحرك وتدور وفق برنامج محدد لا تحيد عنه قيد أُنملة.

تشكل الكرة الأرضية دُرة النظام الشمسي، وربما دُرة النظام الكوني عامة، نظراً لوجود حياة ذكية على سطحها يمثل الإنسان أعلى مراتبها.

أما الطبيعة التي تدعم الحياة البشرية وتتفاعل مع النظام الشمسي بصورة مباشرة، فتقوم على نظام شديد الدقة لا يختلف بتاتاً عن النظام الكوني العامّ. فلا غرابة في ذلك، فالطبيعة التي تؤثر تأثيراً مباشراً على حياة الإنسان هي جزء لا يتجزأ من النظام الكوني الشاسع وتخضع لقوانينه. ويشعر الإنسان بتأثير الطبيعة نظراً لاتصالها به اتصالاً مباشراً وهي تقف وراء سبب الحياة الإنسانية.

فأشعة الشمس والهواء والماء ـ هذه العناصر التي لا تشكل بحد ذاتها أهمية ـ هي العناصر الأساسية التي بوجودها وتراتبيتها وتبدلها وفق

نظام دقيق، هي على درجة كبيرة من الأهمية في حياة الإنسان وتمسي من دونها الحياة الإنسانية مستحيلة.

اذن، يَضبط النظام حركة الكون و الطبيعة بصورة يمكن مراقبتها ودرسها والتنبؤ بمجراها. فالكون والطبيعة قائمان وفق نظام دقيق يضبط حركتهما. من هذا المنطلق، يمكن دراسة الكون والطبيعة والتخطيط لاكتشافهما والسفر اليهما وسبر أغوارهما. فبدون نظام، لا يمكن دراسة الكون والطبيعة بصورة فعّالة، لأن الدراسة تفترض وجود هكذا نظام وإلا تعذر القيام بمثل هذا النشاط الفكري، وبالتالي القيام برحلات فضائية. فالاكتشافات الفضائية لا يمكن أن تتم خارج نطاق وجود منظم ومرتب وفق قواعد يستطيع العقل البشري سبر أغوارها.

وما إن ننتقل للنظر في جوهر الإنسان حتى تطالعنا صورة واضحة تعكس حقيقة أساسية وهي أن الجسم البشري والعقل الإنساني يقومان أيضاً على نظام شديد الدقة لا يقل وضوحاً وبروزاً عن النظام الذي يُسيِّر الكون والطبيعة. فالجسم البشري يعمل بنظام ودقة وتوازن يحار المرء في تفسيرها ويتفاعل مع الطبيعة بصورة مباشرة بحيث يرتبط مصير الوجود الإنساني بقيام أو عدم قيام هذا التفاعل وتوافر هذا التوازن بين الجسد والطبيعة. أما العقل البشري، الذي يكوّن البعد الأسمى للوجود الإنساني، فهو يعمل وفق ضوابط وقواعد منطقية هي أساس التفكير والوعي بالوجود. فهذه الضوابط والقواعد المنطقية تعمل وفق معايير منتظمة لا تحيد عنها ولا تتمكن من العمل في بيئة ومحيط غير مُنظم ومرتب. فالعقل البشري يعمل هكذا، لأن القوى العقلية تعمل ضمن آفاق وأجواء تقوم على النظام والانضباط.

وإذا نظرنا إلى المجتمع الإنساني نجد أنه لا يقل نظاماً وانضباطاً من الكون والطبيعة والجسم الإنساني والعقل البشري. فالمجتمع الإنساني يعمل وفق ضوابط وقواعد دقيقة رغم عجز الإنسان عن إدراك هذه الضوابط والقواعد كافة. فالتوازن الشديد الذي يُسير دفة النظام القائم في المجتمعات البشرية لا يمكن الإخلال به، وإلا تعرّض المجتمع للخضات

والمشاكل والصراع. وما الجهود المبذولة من علم الاجتماع لدراسة المجتمعات البشرية سوى محاولات جادة لاكتشاف القوانين والضوابط التي تُسير المجتمع.

باختصار، يقوم الكون والطبيعة والجسم البشري والعقل الإنساني والمجتمعات البشرية على نظام تتفاوت دقته. فالكون والطبيعة والجسم البشري تعمل وفق نظام شديد الدقة لا تحيد عنه أبداً. والعقل الإنساني يعمل وفق ضوابط وقواعد تتحلى بالمرونة، وهذا من طبيعة العقل. والمجتمع الإنساني يعمل وفق قواعد وقوانين قائمة على توازن بين القوى التي تُكوّن المجتمع. وعلى الرغم من التفاوت في الدقة، يبقى النظام محور الوجود الكوني والإنساني والاجتماعي وجوهره.

فإلى أي مدىً يتوفر النظام في المجالات والنشاطات الإنسانية الأُخرى التي تشكل الإطار العام للحياة السياسية الدولية، السابقة والمعاصرة والمستقبلية؟

ننتقل الآن الى الحديث عن النظام العالمي والإنسان القومي، أحد الإفرازات الهامّة على الساحة السياسية المحلية والإقليمية والدولية.

٢ ـ النظام العالمي

النظام العالمي يعالج موضوع علاقة الدول والمجتمعات بعضها ببعض. فهو يشمل جميع المجتمعات البشرية التي انتظمت في دول، وتلك التي انتظمت في دول إلا ان المجتمع العالمي لم يَعترف بوجودها، وتلك التي لم تنتظم في دول وبالتالي ما زالت على هامش الحياة السياسية الدولية. وبما ان الأكثرية الساحقة من المجتمعات البشرية أو البلدان باتت تشكل دولاً مستقلة، فالنظام العالمي في الزمن الراهن بات نظاماً كونياً تعمل حوالى ٢٠٠ دولة من خلاله.

في الماضي غير البعيد، كان النظام العالمي أوروبياً، ثم اتسع ليصبح غربياً، ومع حلول عقد السبعينات بات عالمياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، أي بات كونياً. لذا، عندما نتحدث عن النظام العالمي يجدر بنا أن

نتذكر أن هذا النظام يشمل الجسم الإنساني بكامله، بغض النظر عن حجم الوحدات التي يتكون منها هذا النظام.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ونحن نتكلم على النظام العالمي هو: هل هنالك حقاً نظام يضبط وينظم علاقات الدول بعضها ببعض، أم أن هنالك فوضى دولية يضبطها قانون الغاب؟.

عند الإجابة عن هذا السؤال يجب الا يختلط علينا الأمر بين وجود نظام ما أو وجود نظام عادل. من هذا المنطلق نقول بأنه كان هنالك دائماً شكل من أشكال النظام ينظم علاقة المجتمعات والبلدان بعضها مع بعض، بغض النظر عما إذا كان هذا النظام قائماً على هيمنة القوي على الضعيف او السيطرة من خلال الفتوحات أو التوازن في القوى بين دول متجاورة عدّة. كان هنالك دائماً نظام ما ضبط الأمور بشكل منع قيام فوضى انتحارية على الساحة الدولية.

والجدير ذكره في هذا الصدد أن فكرة النظام العالمي الكوني حديثة العهد على أثر اتساع نطاق الاكتشافات الجغرافية والمواصلات الحديثة السريعة والاتصالات المتطورة وتحديداً من معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨. قبل هذا العهد كانت توجد أنظمة عدّة «عالمية» على الكرة الأرضية دون أن يؤثر نظام ما على نظام آخر. فمع تحول الكرة الأرضية الى «قرية كونية» باتت جميع دول العالم تشكل نظاماً عالمياً واحداً، بغض النظر عن المسافة التي تفصل ما بين بلدٍ وآخر. فالتكامل الاقتصادي والتجاري تبعه بالضرورة تكامل سياسي تدعمهما مواصلات ووسائل اتصال سريعة حرقت المسافات.

اذن، كان هنالك نظامٌ نظّم علاقات الدول بعضها ببعض. صحيح أنه كان هنالك أكثر من نظام إقليمي «عالمي»، إلا أن المسافات منعت هذه الأنظمة من الاحتكاك والنزاع. فقط في القرن العشرين بات هنالك نظامٌ عالميٌ كونيٌ لحظ وجود الدول وتأثيرها بعضها على بعض.

رغم كونية النظام العالمي، بقي جوهره محلياً، وفي أفضل الأحوال، اقليمياً. إن جوهر النظام العالمي يرتكز على المفهوم القومي وجميع افرازاته السلبية والإيجابية.

سنتحدث الآن عن الإنسان القومي الذي يشكل محور العمل السياسي المحلي والإقليمي والدولي.

٣ ـ الإنساني القومي

يجسد الإنسان القومي مجموعة من القيم ذات الأبعاد العميقة. فالقومية بمعناها الواسع تعود إلى أقدم العصور، وهي ليست وليدة القرن السادس عشر. مع «سلام وستفاليا» عام ١٦٤٨ أخذت القومية طابعاً محدداً وفق معايير معينة أبرزت المواطن العادي كإنسان يتحلى بميزات خاصة فرزته عن المواطن في بلد آخر. لكن القومية تطوير للوطنية Patriotism التي هي تعبير سياسي ـ اجتماعي يدفع حياة كل عضو في المجتمع ويقوي شعوره بالانتماء الى جماعة معينة. فالإنسان القومي تجسيد لمفهوم الانتماء الى جماعة ـ أمة ـ تقيم على أرض محددة، تشارك في ثقافة واحدة وتتكلم لغة معينة وربما جمعها دين واحد وربطتها مصالح اقتصادية وتجارية مشتركة وتتفرد برموز خاصة بها مثل الراية والنشيد الوطني والقوة العسكرية الواحدة. فتجتمع هذه الخصائص والرموز لتولد السيادة الكاملة على التراب الوطني كافة ليكون عنوانها الاستقلال الكامل الناجز.

المجتمع القومي سيد نفسه ولا سلطة خارجية تعلو عليه ولا يحق لأي كان أن ينتهك حرمة السيادة والاستقلال. من أجل ذلك فإن المواطن في أيّ أمة هو مدعو للدفاع عن أراضي الوطن وسيادته واستقلاله وكرامته، ويُطلب إليه التضحية بحياته من أجل الحفاظ على هذه المسلمات.

هذا هو مفهوم الإنسان القومي الذي ظهر على الساحة الأوروبية وما لبث أن انتشر في انحاء الكرة الأرضية كافة، بدءاً بالقرن التاسع عشر ولاحقاً بعد الحرب العالمية الأولى.

ومن خصائص القومية أيضاً ان الأمة الواحدة تضم جماعة أكبر من القبيلة والمدينة، أي أنها تشمل شريحة كبيرة من البشرية ومساحة أكبر من الأرض ضمن دولة واحدة، وهذا أمر جيد ومحمود.

هذه جميعها مزايا ايجابية. أما أهم سلبيات القومية فهي أنها تجسد في الانسان القومي فرزاً تاماً فيما بينه وبين إنسان قومي آخر. فالإنسان القومي الآخر يُمثل، في أحسن الأحوال، منافساً إذا لم نقل غريماً. زد على ذلك، أن المصلحة الذاتية المتأتية عن الأنانية الجماعية المتمثلة في الأمة الواحدة هي المعيار الذي يوجه سلوك أفراد أمة تجاه أمة ثانية. فليس للصداقة مكان ولا للأخوة الإنسانية موقع قدم في علاقات الأمم بعضها ببعض. من هذا تتكون دائماً النزاعات بين الأمم، وفي كثير من الأحيان تتصاعد النزاعات لتصبح حروباً طاحنة.

إن النزاع سمة العلاقات التي تربط الأمم بعضها ببعض؛ وعندما تقوم علاقات وطيدة بين أمتين ـ علاقات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ـ تتميز هذه العلاقات بالحذر الشديد، نظراً لانعدام الثقة بصورة عامة في مبادلات الأمم مع بعضها البعض.

من ناحية ثانية، كثيراً ما يتأتى عن التوجه القومي داخل الأمة الواحدة غبن واضطهاد للأقليات العرقية والثقافية ضمن حدود الأمة الواحدة. زد على ذلك، ونظراً لأن أغلبية الأمم غير متجانسة ومنسجمة بسبب الخلافات القبلية أو اللغوية أو الدينية أو الثقافية ضمن الإطار القومي الواحد، تشهد الساحة الدولية باستمرار صراعات وحروباً أهلية تضعف الجبهة الداخلية، ما يؤدي الى اضطراب مزمن يجلب معه التخلّف والمرض والجوع والفقر والمآسي الإنسانية. هذا الوضع الأخير هو حال الكثير من دول العالم الثالث التي تشكلت خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

تتقاسم البشرية اليوم حوالى ٢٠٠ أُمة ـ دولة. فالأمة ـ الدولة هي الوحدة السياسية المعترف بها. ونظراً لهذا العدد الكبير من الأمم ـ الدول، ونظراً لتميز التفاعل بينها بالمنافسة والنزاع وليس بالتعاون، باتت الساحة الدولية عرضة لخضات كثيرة في السنوات الخمسين الماضية من خلال الحرب الباردة. ومع تراجع حدة النزاعات بين الأمم بعد زوال الحرب الباردة، برزت ظاهرة النزاعات الأهلية الداخلية العرقيّة والدينية التي لا

تقل خطراً عن النزاعات الخارجية، ذلك لأنها تستقطب اهتمام الأمم الأخرى، مما يؤجج نار هذه النزاعات الأهلية. باختصار، إن تجزئة العالم الى أمم مستقلة ذات أبعاد قومية منفصلة أدت الى زعزعة الاستقرار العالمي وعملت على إذكاء نار المنافسة غير الشريفة وجعلت منطق الغاب يسود الساحة الدولية، خاصة في المرحلة الحالية التي تلت انتهاء الحرب الباردة وجعلت للقوة بمعناها العريض الواسع السلطان المطلق.

الإنسان القومي على الساحة الدولية انسان بشع للغاية يجسد شتّى المساوىء العائدة الى الأنانية الجماعية. فبدلاً من أن ينظر الإنسان القومي إلى ذاته على أنه امتداد للإنساينة جمعاء، نراه يعزل نفسه عن مجريات الأمور في العالم كونها نظرة تعوق مسيرته وتشكل حاجزاً لطموحاته وتجعل الناس الآخرين على الطرف الآخر من الحدود غرباء لا يجب الثقة بهم ولا يمكن الاستكانة الى تصرفاتهم. ففي مقابل الإنسان القومي الواقف على حدوده، يقف إنسان قومي آخر يبادله العداء.

لم تتبدل صورة الإنسان القومي البشعة كثيراً مع ازدياد التواصل بين الأمم في العقود القليلة الماضية، إذ لم تزل القومية المعيار الرئيسي والقاعدة الطاغية والمنظار الرمادي الذي تقاس به علاقات الأمم والأفراد والجماعات.

لقد شذت عن هذه القاعدة مجموعة من الأمم قاست الأمرين من ويلات القومية ومساوئهاخلال القرون الماضية. إن دول اوروبا التي تسعى الى الاتحاد في كيان سياسي واحد أثبتت ان المواطن في أمة معينة يمكن أن يعود إلى أصالته الإنسانية ويتخطى المفهوم القومي الضيق للإنسان. كما أثبتت مساعي هذه الأمم أن القومية مرحلة من مراحل تطور المجتمعات وليست خاصة أزلية. طبعاً حتى لو تمت الوحدة السياسية الكاملة بين هذه الأمم الأوروبية، ستمر سنوات طويلة قبل أن تتقبّل شعوب هذه الأمم كافة فكرة الأخوة الأوروبية فتزول كل مشاعر العداء القومية المتأصلة. زد على ذلك أن الأمة ما زالت الوحدة التي يتكوّن منها الاتحاد الأوروبي. كما أن هنالك خوفاً حقيقياً من بروز قومية أوروبية -

وإن أوسع كثيراً ـ تحل محل القوميات المنفردة التي يتكوّن منها هذا الاتحاد، فيبرز وجه الإنسان القومي الأوروبي البشع عوضاً من الإنسان القومي الالماني، أو الفرنسي...الخ. هذه كلها احتمالات واردة الحصول مع مطلع القرن الجديد، موعد توحيد النقد داخل الاتحاد الاوروبي.

من ناحية أخرى، أثبتت الأحداث على أثر تفكك الاتحاد السوفياتي، أن الشعور القومي لا يمكن أن يزول من خلال طمسه حتى بعد أكثر من سبعة عقود من الزمن وأنه لا بدَّ، كما أثبتت التجربة الأوروبية، من إرضاء الشعور والأحاسيس القومية حتى يُمكن تخطيها بعد ذلك.

هنالك محاولات أخرى باتجاه تخطي النطاق القومي الضيق في أمكنة متعددة من العالم. فجامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة الافريقية ومنظمة الدول الاميركية وسواها، هي جميعاً محاولات في هذا الصدد. لكن هذه المحاولات كافة راوحت مكانها ولم تؤدِ الى قيام كيانات فاعلة على نطاق واسع.

كما أن الدعوة الى العالمية من خلال سياسات الاتحاد السوفياتي السابق لأكثر من سبعين عاماً، وممارسة الأمم المتحدة منذ تأسيسها سياسة تخطت المفهوم القومي الضيق والحدود القومية للأمم، أدت خدمة للشعوب جميعها، وساهمت في إظهار مساوىء القومية وفضائل العمل الإنساني الذي يتخطى سلبية الأنانية الجماعية المتمثلة بالأمم المختلفة.

باختصار، رغم التطورات الكثيرة على الأرض للتخفيف من حدة سلبيات القومية وتخطي المرحلة القومية خلال القرن العشرين، ما زالت الأمة هي الوحدة الكيانية للمجتمعات الإنسانية والنظام العالمي القائم الذي تهيمن اليوم أمة واحدة على مقدراته وسياساته.

ولا يكتمل الحديث عن النظام العالمي والإنسان القومي ما لم نشر إلى تطور ايجابي على هذا الصعيد يبشر بالكثير من الخير للبشرية جمعاء. هذا التطور يتجلى في بروز أفراد وجماعات وهيئات في الأمم كافة، تبنت المفهوم الإنساني لعلاقات الشعوب والأمم، والذي يصب في

مفهوم العالمية الشاملة. ورغم قلة هذه المجموعات من الناس، إلا أنها الخميرة التي ستؤدي الى «طلوع» عجينة العالمية وتغذيتها. هؤلاء الأفراد القلائل الذين يعيشون العالمية بصدق وإخلاص رغم تضييق النطاق على أعناقهم من قِبَلِ التوجه القومي فإنهم يشكلون طليعة العالمية التي لا شك في أنها قادمة.

زد على ذلك، أن جميع شعوب العالم تعيش «حالة» عالمية ضمن الأطر القومية المختلفة. فتكامل العالم وإندماجه اقتصادياً سياسياً وإعلامياً، واقع يختبره المرء في حياته اليومية في أي مجتمع قومي كان. كل هذه الحقائق الثابتة تعمل على تخفيف قوة المد القومي وتساهم في تعميق المفهوم العالمي وتوسيعه.

في الختام، إن النظام العالمي الذي تشكل الوحدات القومية جوهره يدور في حلقة مفرغة. هو يمثل مصالح ونفوذ القوى القومية التي يتألف منها، بينما العالم يعيش عالمية حقيقية تتخطى شتّى الحواجز والمعوقات. هذه الدوامة التي يعيشها النظام العالمي مرشحة لأن تتفاقم في المستقبل ما لم يعمل الجميع على قيام نظام عالمي عادل يُزيل هيمنة التفكير والسلوك القومي من الساحة الدولية.

الفصل الثاني

الطوباوية والواقعية والبرغماتية

ثمة ثلاث مدارس وأساليب للاقتراب من البحث في موضوع النظام العالمي، هي الطوباوية والواقعية والبرغماتية. لكن قبل البحث في هذه الأساليب لا بدَّ من الإشارة إلى أن كل واحد منها يُشكل حيزاً مستقلاً وفي الوقت ذاته يتمّم الأسلوب الآخر. بكلام آخر، إن جوهر هذه الأساليب واحد، أي حقيقة النظام العالمي، لكن الاختلاف يكمن في التشديد على ناحية دون الأُخرى، والنظر إلى عناصر النظام بمنظار يختلف عن المنظار الآخر.

١ . الطوباوية والنظام العالمي

إن الطوباوية في النظام العالمي هي عبارة عن تصور مثالي لما يمكن أن تكون عليه علاقة الأمم والشعوب بعضها ببعض. ان الطوباوية ترسم صورة متفائلة لما يجب أن تكون عليه هذه الناحية من الوجود الإنساني. إن الطوباوية في النظام السياسي هي نظرة ثورية لحركة التاريخ في التبدل والتغيير السياسي والاجتماعي والثقافي إنها تهمل الوسيلة وتركز على الهدف دون الأخذ بعين الاعتبار المراحل العملية الضرورية للوصول الى الهدف. انها حدسية تصل الى النتائج دون المرور بالخطوات الواقعية المنطقية التي تنقل النظام العالمي من مرحلة إلى أُخرى من دون تشنجات وخضات وجودية.

تساهم الفلسفات القديمة والحديثة والأديان الكبرى والحركات

السياسية المعاصرة في رسم الخطوات العريضة والمراحل المتعددة للنظرة الطوباوية. فالفلسفات والأديان نادت بالأخوة الانسانية ودعت إلى أوثق عرى التعاون بين الشعوب والأمم منذ أقدم العصور. والفلسفات الطوباوية من افلاطونية الى النظريات الطوباوية الى الماركسية والفابية بشرت بقيام نظام عالمي يربط الشعوب والأمم والعمال على أساس من المشاركة والعطاء بدلاً من التنافس والنزاع والجشع والهيمنة. والحركات السياسية المعاصرة غير الحكومية رفعت لواء السلام وتَوَقُّف الحروب كهدف نهائي لتحقيق حلم البشرية في قيام نظام عالمي، أساسه رفض العنف كوسيلة لتحقيق الأهداف الإنسانية ونبذ الهيمنة واحتكار الاستثمار لخيرات الأرض واعتماد التسامح بدل الانتقام عند قيام الخلافات.

إن الطوباوية في النظام العالمي أكثر من فلسفة وأقل من حلم. إنها تؤمن بأن الطبيعة البشرية خيّرة، لذا فالإنسانية قادرة على حمل الأمم والشعوب لإقامة النظام العالمي المثالي. الطوباوية طريقة عيش وأسلوب حياة تنظر إلى الحياة البشرية نظرة تفاؤلية دون أن تفطن إلى الناحية السلبية من الطبيعة البشرية، مثل الأنانية الجماعية المفرطة أو الشوفينية، والاستئثار والروح العدوانية المتأصلة في الإنسان.

حاولت الماركسية طوال أكثر من سبعة عقود من الزمن إرساء قواعد حياة دولية سليمة فباءَت بالفشل. وسبب فشل الماركسية في تسويق فكرتها العالمية أنها، أولاً، كانت طوباوية ممزوجة بمكيافيلية انتهازية، وثانياً، إن منطلقاتها الفكرية والتطبيقية كانت ناقصة؛ وثالثاً، إنها لم تَحسب حساباً للحرية فسقطت التجربة العملية الأولى للعالمية وكان لسقوطها وقع عظيم ساهم في خلق الشك بجدوى الأسلوب الطوباوي لقيام نظام عالمي سليم عادل، رابعاً، انها كبتت الحريات الدينية والحزبية والفكرية وفشلت في ايجاد مخرج من رمال القومية المتحركة. التجربة الماركسية في الاتحاد السوفياتي تجربة فذّة يجدر بالقياديين العاملين على قيام نظام عالمي سليم أن يتعلموا منها الشيء الكثير.

فشلت الطوباوية في الترويج لفكرة قيام نظام عالمي سليم ومستقر

لأنها ركزت على أن الهدف النهائي للطوباوية هو اقامة وحدة سياسية كونية مركزية تضم شعوب الأرض وأممها كافة. ان الخطأ ليس في الهدف النهائي بل في الإخفاق بوضع خطة عملية مفصّلة لتحقيق الهدف تأخذ بعين الاعتبار الخطوات المرحلية التي يجب اتباعها للوصول الى الهدف النهائي. لم يع القياديون الطوباويون ان الواقع يفرض وضع مثل هذه الخطة والعمل على تنفيذها. أغفلت الطوباوية منطق التاريخ الداعي إلى اتباع مراحل تتدرج من واحدة إلى أخرى لقيام النظام العالمي المثالي.

كانت الطوباوية ولم تزل على عجلة من أمرها. تود حرق المراحل للوصول إلى الهدف بأسرع وقت ممكن غير مدركة أن التبديل والتغيير في المجال السياسي الدولي يستغرقان زمناً طويلاً جداً، على الرغم من أن العالم يعيش حالة عالمية. أرادت الطوباوية أن تختزل الزمن بعقود عدّة قليلة، بينما العملية تتطلب قروناً طويلة. من أهم العقبات عقبة كؤود تواجه الطرح الطوباوي هي القومية. فالقومية منذ القدم حالت دون اندماج الشعوب والأمم في مجتمعات متجانسة، لذا فإن اقامة نظام عالمي سليم وفق النظرة الطوباوية، بقي أمراً يصطدم بحاجز عالٍ وصعب، لأن القومية ليست سوى مرحلة ستؤدي حتماً إلى العالمية الكاملة. وهكذا ساهمت الطوباوية في تأخر قيام نظام عالمي عادل يعتمد اسلوباً آخر، ذلك أنها ابتعدت عن الأسلوب التطويري التدريجي ولجأت إلى الثورة لتحقيق الهدف، ما أدى إلى الرجوع إلى الوراء سنين وعقوداً.

لا غبار على التوجهات الفكرية النظرية للطوباوية بالنسبة إلى قيام نظام عالمي مثالي. فالطوباوية الماركسية والدينية والفابية لم تنجح في ترجمة أفكارها إلى حقائق ووقائع فوقعت في المحظور. أفسدت ما كان يمكن تحقيقه لو أنها بقيت ايديولوجية تُلهم القادة والمفكرين لما هو حتماً سيحصل. إن تَنَطُّح الماركسية لحمل عبء التنفيذ أدى إلى عكس ما شاءت تحقيقه.

الطوباوية نظرة فلسفية سياسية مثالية ويجب أن تبقى كذلك، أي مصدر إلهام ووحي وليس خريطة مُفصلة Blueprint لتنفيذ مشروع قيام

نظام عالمي سليم وعادل. كما أن قيام حكومة عالمية أمر بعيد المنال يجب أن تسبقه مراحل واقعية من التعاون والتضامن وقيام نظام عالمي عادل يعكس حقيقة المراحل التي مرت وتمر وستمر بها المجتمعات البشرية.

كلمة حق تقال، الطوباوية نظرة فلسفية نابعة من صميم الطبيعة البشرية وحقيقتها الخيرة. ترى الأمور بمنظار ساطع النور يُلهم الكثيرين للتضحية والبذل في سبيل هدف نبيل وسام، ألا وهو قيام النظام العالمي العادل المبني على التضامن والتعاون والمشاركة والعطاء. وفشل الطوباوية حتى اليوم يجب الا يفقدها رونقها وتألقها.

٢ - الواقعية والنظام السياسي

تتميز المدرسة الواقعية بكونها تتحدث وتعمل وفق ما هو عليه واقع الحياة وليس وفق ما يجب أن يكون عليه الحال. تنظر إلى الأمور كما هي سائدة اليوم والآن وليس ما سوف تكون عليه بعد عدة سنوات أو عقود. إن المستقبل بنظر المدرسة الواقعية مرهون بتحولات وتبدلات الحاضر وهو كتاب مقفل مفتاحه الأحداث اليومية التي تقع في شتى أرجاء العالم. لذا فالنظام العالمي هو ذلك النظام الذي يلحظ حياة الأمم والشعوب ويعكس أحداثها التي تتتالى من يوم لآخر. فالواقعية تؤكد أن النظام العالمي الراهن تسوده المنازعات وتوجهه الأنانية الجماعية المتطرفة وتحركه نزعة الصراع والاستئثار والقوة. فليس وارداً أن تفكر بما سيكون عليه النظام العالمي أو كيف يجب أن يكون. فالبعد الأخلاقي بعيد كل البعد عن تفكير القادة ورجال الدولة وسلوكهم. كل ما يهم القادة الواقعيين هو أن ينجحوا في تنفيذ سياساتهم ودفعها إلى آخر الشوط.

فرجل الدولة الواقعي في السياسة الخارجية هو غيره رجل الدولة والمواطن في السياسة الداخلية. رجل الدولة هذا يعيش بشخصيتين: مواطن عادي ذو مبادىء ومثل يربي أولاده على التمسك بها واحترامها، يحلم في أن تصل أمته إلى أعلى مراتب العز والسؤدد وفق معايير انسانية اخلاقية عالية ويشارك الإنسانية جمعاء أفراحها وأتراحها. إلى هنا تنتهي صورة المواطن الشريف لتحل محلها صورة قبيحة تنتج عن تبوّء

مركز المسؤولية في سياسة بلده الخارجية. ففي مركز المسؤولية، يتحول رجل الدولة الواقعي إلى إنسان آلي ينفذ ويدافع ويسّوق سياسة بلده الخارجية مستخدماً الوسائل المتاحة له كافة لتحقيق مصالح بلده ورفع رايته عالياً. فهو يراوغ ويراهن ويكذب ويهدّد دون أن يرف له جفن. رجل الدولة الواقعي يُجسّد خير تجسيد الإنسان القومي البشع عندما يساهم في الترويج لسياسة بلده الخارجية تجاه البلدان الأخرى. وعليه، تشكل السياسة الخارجية الواقعية لبلد ما البنية التحتية لما يمكن أن يكون عليه النظام العالمي. كل نظام عالمي يطمح إلى الاستقرار والهدوء وليس الاستقرار والهدوء القائم على العدل والمساواة والتعاون. إن هدف النظام العالمي الواقعي هو فرض السلام وإن جاء جائراً وتحقيق الاستقرار وإن جاء نتيجة القهر. فالواقعية في السياسة الخارجية تعترف بالظاهر المُعلَن وليس بالخفي المُضمَر. إنها أسيرة أفكارها وتوجهاتها التي تدور في حلقة مفرغة ومفزعة. فالأنانية القومية تغذي تطلعات رجال الدولة الضيقي الأفق وبالتالي تمد هذه التطلعات الأنانية القومية القائمة على المكيافيلية الانتهازية بطاقة جديدة تعززها وتغرر بها.

تخلو النظرة الواقعية في السياسة الخارجية من البُعد المثالي المُحيّي والدافع إلى مراتب أسمى وأعلى. إن القائمين على التخطيط والتنفيذ للسياسة الخارجية في بلد ما هم عاجزون أمام ديكتاتورية النظام System الذي يعيشون في ظلّه. هذا هو حال الأغلبية الساحقة من المسؤولين عن وجود النظام العالمي. هم أسرى هذا النظام الذي هو حصيلة تراكم أفكار وتصرفات عدد كبير من الرجال شكلت مجموعة من التوجهات بات لها مركز «مُقدسٌ» في تفكير القائمين على السياسة الخارجية الحالية وفي سلوكهم. فكل مَنْ يودُ أن يعيد توجيه مسيرة النظام يواجه معارضة كبيرة ربما أدت إلى طرده أو نفيه خارج النظام.

طبعاً إن معطيات السياسة الخارجية ومبادئها لبلد ما، تتبدل وتتغير مع مرور الزمن. فالثانوي هو الذي يتغير، بينما تبقى هنالك ثوابت

ومسلمات صامدة لا تمس جوهر هذه السياسة والنظام، وبالتالي يستمر النظام العالمي في تقوقعه ومحافظته.

إن الهوة التي تفصل الأسلوب الطوباوي عن الأسلوب الواقعي فيما يخص النظام العالمي سحيقة لا يمكن ردمها إلا من خلال تحول ثوري في ثوابت النظرة الواقعية ومسلّماتها. ففي حين تنادي الطوباوية بمجيء إنسان جديد يترك وراءه إرثاً طالما كبَّد وما يزال يكبد البشرية مآسي ومصائب كثيرة، وتنادي بقدوم إنسان يؤمن ويطبق مفهوم الانسان أخ الانسان في أي أمة أو موقع كان، وان على الإنسان المتقدم والمتطور والعالم والثري واجباً تجاه الآخرين الذين لم تحالفهم الظروف بعد في الوصول إلى مرحلة التطور والمعرفة والكفاية المادية، ترفض المدرسة الواقعية منطق الانسان أخ الانسان وتضرب عرض الحائط بمبدأ واجب الإنسان في موقع معين تجاه الإنسان في موقع آخر. ففي نظر الواقعية ، ان الإنسان في أفضل الظروف هو غريم ومنافس، إن لم نقل عدواً، للإنسان الموجود على الطرف الآخر من الحدود.

ولقيام نظام عالمي، لا بد من إتباع أسلوب يستوحي مثالية الأسلوب الطوباوي ويأخذ العبرة من سلبيات المدرسة الواقعية في السياسة الخارجية. اسلوب يجمع بين محاسن الطوباوية والنظرة العملية للأسلوب الواقعي. أُسلوب يبشر بقدوم نظام عالمي مرن ومتحرك يعيش العالمية التي يعيشها العالم في مجالات الاقتصاد والمواصلات والاتصالات والعلوم والثقافة. هذا الأسلوب أو هذه المدرسة هي النظرة البرغماتية العملية التي يُمَكِن البشرية من نظام عالمي قائم على المنافسة والنزاع والحرب إلى نظام عالمي قائم على التعاون والمشاركة والعدل.

٣ ـ البرغماتية والنظام العالمي

البرغماتية فلسفة حديثة ظهرت في العالم الجديد مع نهاية القرن التاسع عشر لِتَرْدُمَ الهوّة بين الفلسفة المثالية والفلسفة الواقعية اللتين طبعتا المناخ الفكري الاوروبي في القرون القليلة الماضية، واللتين يعود مصدرهما الى الفلسفة الإغريقية والعصور الوسيطة. فالبرغماتية تجمع

بين المثالية والواقعية في النظرة الى الحياة والكون والإنسان. وقد وجدت البرغماتية مجالاً واسعاً في شتى المنظومات الفكرية والتوجهات العلمية والنشاطات الإنسانية على اختلافها وتنوعها، خاصة في شتى المجالات داخل الولايات المتحدة. لذا لم يكن غريباً أن تجد البرغماتية صدًى كبيراً في العلوم السياسية والسياسات التي طبعت السياسة الخارجية الأميركية منذ تبوأت الولايات المتحدة مركز الصدارة على الساحة الدولية خلال الحرب العالمية الأولى وحتى الزمن الراهن. وكان للبرغماتية افرازات متعددة في اوروبا، خاصة في بريطانيا والمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وفي الشرق الأقصى، خاصة في اليابان، على أثر احتلال هذه الأخيرة من قبل الولايات المتحدة.

كذلك أفرزت البرغماتية الأميركية في السياسة أفكاراً عدة مسّت كافة أمم العالم وشعوبه كافة، خاصة دول العالم الثالث. كما تجد البرغماتية اليوم مجالاً واسعاً في نطاق السياسة الدولية على أثر انتهاء الحرب الباردة، فروسيا وكلّ الدول التي كانت تشكل الاتحاد السوفياتي والكتلة السوفياتية، تنظر إلى البرغماتية السياسية الأميركية نظرة إعجاب وتقدير. لذا تظهر البرغماتية الأميركية في السياسة الخارجية والنظام العالمي في الوقت الراهن كأنها التوجه السياسي الطاغي المهيمن على الساحة الدولية.

لكن، ما هي البرغماتية التي دمغت سياسة الولايات المتحدة الخارجية؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال نلحظ أن الولايات المتحدة التي تمارس الديمقراطية بجدية تُحسد عليها أرست قواعد سياسة خارجية تعكس حقيقة الحياة السياسية الداخلية وتكوين الولايات المتحدة الديمغرافي والاقتصادي والثقافي. فالسياسة الخارجية والسياسية الداخلية هما وجهان لحالة واحدة، حالة الرغبة في البقاء بعيداً عن مجريات العالم والانعزال، وحالة التطلع لقيادة العالم أجمع. هذا التجاذب بين العزلة والانفتاح يشكل أهم ثوابت السياسة الأميركية منذ قيام الجمهورية الاميركية وحتى الزمن الراهن. فبعد أن مضى أكثر من ٥٠

عاماً على لعب الولايات المتحدة دوراً مهيمناً في العلاقات الدولية، تعلو من وقت لآخر أصوات تنادي بالانكفاء على الذات وإيلاء الشأن الداخلي الأهمية المطلقة. ترفض البرغماتية السياسية المفهوم الايديولوجي في السياسة عامة، الداخلية والخارجية منها. فالايديولوجية السياسية تكبل أيدي المسؤولين وتمنعهم من رؤية الأمور بشكل حقيقي وواقعي. إنها تعمل على تفسير دفة السياسية الخارجية وتوجيهها، بحيث تنسجم مع ثوابت وليس العكس. فالواقع في مثل هذه الحالة يغدو مشوهاً إذ إن الوقائع هي التي تكونه الايديولوجية فتصبح السياسة الخارجية انتقائية. كما ينتج عن إتباع توجه ايديولوجي تفصيلي تصلب غير مبرَّر في السياسة الخارجية وغياب المرونة التي تفرضها البرغماتية التي تنادي بأسلوب مرن للتعاطي مع الوقائع والأحداث حتى تنسجم السياسة الخارجية مع حقيقة الواقع. إن رفض الايديولوجية في السياسة الخارجية لا يعني بتاتاً أن لا توجد مبادىء أو ثوابت. إنما العكس هو الصحيح. فالبرغماتية تتبنى ثوابت ومبادىء محددة تعمل على وضع الإطار الواسع العريض للسياسة الخارجية وتوجه العمل السياسي الخارجي. هذه الثوابت والمبادىء تُكوّن الخطوط العريضة وليس خطة تفصيلية للعمل السياسي. لكن، هل هذه الثوابت والمبادىء جامدة متحجرة كالنظرة الايديولوجية؟ طبعاً لا. مبادىء وثوابت البرغماتية قابلة للتعديل والتغيير على المدى الطويل تبعاً لتبدل المناخ والأجواء الإنسانية وتغيّرها. فالتوجه القومي، على سبيل المثال، تبدل تبدلاً جذرياً في نصف القرن الماضي لدرجة أن احدى دعائم التوجه القومي، وهي السيادة القومية، باتت مفارقة تاريخية في عالم الدفاع عن حقوق الإنسان وفي عالم الاتصالات المتطورة التي لا تعترف لا بحدود ولا بحواجز. وفي عالم التكامل الاقتصادي والتجاري والتكنولوجي والعولمة.

زد على ذلك ان البرغماتية تضع قدماً في عرين المثالية الطوباوية وتضع قدماً أخرى في وادي الواقعية العملانية. لها موطىء قدم في الأحلام الكبرى، ولها مرتع خصب في الوقائع والأحداث اليومية التي تشكل الواقع المُعاش على الأرض. فهي لا ترفض التوجهات الطوباوية

المثالية على أنها تسبح من الخيال، ولا تقبل الواقعية على أنها النظرة الأزلية للوجود. ولا ترفض المناداة بأقصى الأهداف الطوباوية التي تعلن قرب قيام الدولة العالمية المثالية، ولا تقبل بتوجهات الواقعية القائلة بأن حال النظام العالمي ثابت لأن القومية والطبيعة الإنسانية غير قابلتين للتغيير، وبالتالي فالأمور ستحافظ على الوضع الراهن إلى آخر الدهر.

إن البرغماتية تدافع عن الموقف القائل بأن النظام العالمي سيتبدل تدريجياً ليصبح أكثر عدالة وتوازناً واستقراراً، لأن الإنسان القومي يتجه لأن يكون مختلفاً في المستقبل، أي يتخطى البعد القومي الى حقيقة ما وراء القومية، نظراً لأن تبدل الظروف في مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والاتصالات والثقافة، يفرض وضعاً جديداً يعمل على تقويض المفهوم القومي. لكن التبديل في المراحل القريبة المقبلة لا يبرر لا الخيال الطوباوي الجامح ولا التزمت الشديد للواقعية. فالبرغماتية نظرة متحركة تتغذى من ينبوعَيِّ الطوباوية المثالية والواقعية العملانية من دون أن تفقد هويتها المميزة. أُولى ثمار البرغماتية السياسية على صعيد النظام العالمي توسيع قاعدة المنادين بالعالمية. فالإنسان العالمي موقعٌ متقدم في التعاطي في شؤون الحياة السياسية كافة، المحلية والدولية، والاقتصادية والثقافية والاتصال. فالفكر البرغماتي يتجه حثيثاً نحو العالمية. فالروافد التي تغذي العالمية كثيرة ومتنوعة الخلفيات. أولاً، الديانات السماوية الكبرى التي تنادي بالأخوة الإنسانية. إن دعوة الديانات إلى اقامة رابطة بين ابناء البشر قاطبة خير «ايديولوجية» لتخطي المفهوم القومي والوصول إلى العالمية. ثانياً، الإرثُ الماركسي والفكر الماركسي ما زالا يغذيان التوجه العالمي، وإن لأسباب مختلفة. ثالثاً، الهيئات الأهلية وجمعيات السلام تساهم مساهمة كبيرة في تعزيز العالمية وموقعها. رابعاً وأخيراً، الفكر البرغماتي الذي يتخطى جميع الحدود السياسية والفكرية ويعمل بصورة عملية تجريبية على إرساء قواعد نظام عالمي قائم على مفهوم التعاون والمشاركة الإنسانيين والذي لا بد واصل إلى تحقيق المثل والأحلام الطوباوية ولو بأسلوب وتوقيت مختلفين.

وقد تجلى الفكر البرغماتي بصورة عملية في شخص وأقوال وأفعال الرئيس الأميركي الأسبق «ودرو ولسن» الذي ترأس الولايات المتحدة الاميركية خلال الحرب العالمية الأولى، وما تبع ذلك من ترتيبات سياسية على صعيد اتفاقية فرساي وإنشاء عصبة الأمم. ففي شخص «ودرو ولسن» اندمجت البرغماتية الأميركية والنظرة العالمية لتعملا معاً على قيام نظام عالمي جديد في الشكل والمضمون. فقد سعى «ولسن» الى إقامة المنظمة العالمي الأولى في تاريخ البشرية كوسيلة لإحلال السلام العادل والشامل في كل مكان. لكن السياسات الاستعمارية التي انتهجتها كلٌّ من فرنسا وبريطانيا وهيمنة القومية الضيقة القائمة على الانتقام وإنزال أقصى العقوبات بالمانيا وعدم تجاوب الشعب والكونغرس الأميركيين مع تطلعات ولسن العالمية وبروز الانعزالية مجدداً على الساحة الأميركية وعدم انضمام الولايات المتحدة إلى عصبة الأمم، أدت إلى تأخير بروز مد العالمية حوالى قرن من الزمن.

تجلّت برغماتية «ولسن» السياسية الدولية في النهج الذي حاول اتباعه خلال الحرب وتبعه عند انتهاء الحرب، وما تبع ذلك من ترتيبات لإحلال السلام. لأنه أراد أن لا يُحمّل الطرف الألماني وحده المسؤولية عن اندلاع الحرب، وبالتالي حاول أن يحرم الطرف المنتصر، فرنسا وبريطانيا، من فرصة الاقتصاص بقساوة من المنهزم. شاء أن تكون الترتيبات اللاحقة للحرب أساساً لقيام نظام عالمي جديد قائم على نسيان الماضي وعلى التعاون لبناء عالم جديد من أجل مستقبل زاهر للبشرية جمعاء. فقد أدخل ولسن نَفَساً جديداً على كيفية التعاطي في السياسة الخارجية فخذله حلفاؤه وأمته لأنهم لم يدركوا حقيقة أبعاد الأفكار والتوجهات التي طرحها. إلا أننا نرى اليوم الأوساط السياسية الأوروبية والأميركية والعالمية أخذت تدرك أهمية «الطوباوية الولسونية» وأبعادها التي تنسجم مع حركة التاريخ وتطور المجتمع البشري.

ففي النقاط الـ ١٤ التي طرحها عشية انتهاء الحرب، وضع ولسن مسودة دستور لحياة سياسية دولية تعمل على تحقيق الطموحات القومية

للشعوب كافة والتعاطي بين الأمم والشعوب على أساس التعاون والمشاركة واستخدام آلية المنظمة الدولية لفض النزاعات بصورة سلمية حتى لا تتحوّل إلى نزاعات مسلحة. هذه النقاط الـ ١٤ جمعت بين مثالية الطوباويين وعملانية الواقعيين؛ جمعت بين ما ترنو إليه البشرية من طموحات ومبادىء وبين النهج العملاني الذي ينتهجه الواقعيون. إنها خير تجسيد للبرغماتية السياسية التي وضع أسسها «ولسن» وعمل من أجلها حتى الرمق الأخير من حياته.

لا أُغالي إذا قلتُ إن تاريخ الولايات المتحدة وأوروبا والعالم كان يمكن أن يكون مختلفاً منذ العام ١٩١٩ لو أن الولايات المتحدة لم تنكفىء على ذاتها وساهمت في عصبة الأمم (عند قيامها) ولو أن الدول الأوروبية لم تضرب بعرض الحائط بتوصيات ولسن لإحلال السلام العادل والدائم في اوروبا. فالبرغماتية الولسونية في علاقات الأمم والشعوب لم تَقِل مثالية عن العالمية الماركسية التي نادت بها الثورة الاشتراكية التي قامت في روسيا عام ١٩١٧. كان هنالك التقاء بين النظرتين حالت التطورات داخل الولايات المتحدة وخارجها دون انصهارهما. كما ان ابتعاد الولايات المتحدة عن الساحة الأوروبية حرم اوروبا وقوف الرادع الأميركي في وجه النازية وهتلر فوقعت الحرب العالمية الثانية. كما وأن عدم لقاء البرغماتية الولسونية مع الثورة الشيوعية مهّد الطريق للحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية.

باختصار، جاءَت البرغماتية الولسونية ببرنامج عمل سياسي دولي متكامل رفضه المجتمع الاميركي وخذله الحلفاء الأوروبيون الذين كانوا لا يزالون يعيشون أوهام الأمجاد الاستعمارية والقومية، ولم يدرك أهميته رجال الثورة الاشتراكية في روسيا. سقط البرنامج الولسوني، ليس لطوباويته أو تزمّته الواقعي، بل لأنه شكّل خطراً على مصالح اللاعبين على الساحة الدولية. فبرنامج ولسن العائد لأكثر من الثمانين سنة كان ولم يزل صالحاً لوضع أسس نظام عالمي سليم. واليوم فقط، ونحن مع مطلع القرن الحادي والعشرين، أدرك العالم الثورة التي أدخلها ولسن على السياسة الدولية، ثورة خُنقت بالمهد رغم برغماتيتها السليمة.

البرغماتية تمثل رجلاً رأسه في السماء وقدماه على الأرض. يكفر بوحي أفكاره المتشبثة بالمُثل والأحلام الكبرى ويسير على أرض صلبة ترسخه حتى لا يغيب في متاهات اللاواقع، يجمع في بوتقة واحدة محاسن المبادىء المثالية النبيلة وفوائد التجذر في أرض الواقع. فالحياة عامة، والحياة السياسية الدولية خاصة، لا تستوِي ولا تتوازن إلا من خلال هذا الدمج بين الطوباوية والواقعية.

بعد هذه اللمحة النظرية على ساحة النظام العالمي العتيد، لا بد من إطلالة مفصّلة نوعاً ما على مسيرة مفهوم النظام العالمي في القرن العشرين. نبدأ أولاً بالحديث من النظام العالمي الذي كان قائماً قبل «اندلاع» الحرب الباردة.

الفصل الثالث

النظام العالمي قبل الحرب الباردة

إن الفترة التي سبقت الحرب الباردة والممتدة من مطلع القرن العشرين حتى العام ١٩٤٥ كانت حافلة بالأحداث الجسام والتمخضات الكبرى والتناقضات. كانت مرحلة انتقالية غير واضحة المعالم، فجاءَت الحرب الباردة لتبدد ضبابيتها ولتبلور اتجاهاتها. عندها دخل العالم أجمع متاهات الصراعات الدائمة والمستمرة وولج بوابة خطر الفناء.

أحداث جسام عدة وقعت في هذه الفترة قلبت موازين القوى كافة المعروفة حتى ذلك الحين. فاهتز النظام العالمي فسقطت امبراطوريات وانهارت أمم وسطع نجم دول أُخرى. سنلخص هذه الأحداث بالنقاط الآتية:

النظام العالمي قبل ١٩٤٥

شهد العالم الحرب الكونية الأولى بين ١٩١٤ و١٩١٨ تبعتها، بعد عشرين عاماً، حرب كونية ثانية جاءَت أكثر شراسة وأعظم دماراً وأعتى تأثيراً على مستقبل العالم.

أتت الحرب العالمية الأولى على امبراطوريتين هما الامبراطورية العثمانية والامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية، ما أجج نار القومية التي اندلعت في أوروبا الشرقية والبلقان والشرق الأوسط. فحدث فراغ سياسي أسرعت كل من بريطانيا وفرنسا الى ملّئه. ونظراً لأن المانيا كانت

تعاني نتائج الهزيمة، وروسيا مشغولة بشؤونها الداخلية على أثر الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧، لم تلعب هاتان الدولتان دوراً كبيراً في الشؤون الاوروبية والشرق الأدنى في السنوات القليلة التي أعقبت الحرب.

مع اشتراكها في الحرب العالمية الأولى ومساهمتها في ترتيبات السلام وعصبة الأمم، برزت الولايات المتحدة الأميركية كقوة عظمى بعد البقاء بعيداً عن مجريات الأحداث في العالم. لكن انكفاءَها مجدداً بعد الحرب حرم العالم والنظام العالمي من ثقل الولايات المتحدة الجديد ونفوذه وتوجهاته. ان دخول الولايات المتحدة الحرب رجح كفة بريطانيا وفرنسا مقابل المانيا، ومنذ ذلك الحين بات العالم أجمع ينظر إلى دور مميز تلعبه الولايات المتحدة في السياسة الدولية. وقد تأكد هذا الدور وتعزز عند اندلاع الحرب العالمية الثانية. ولأن بروز الولايات المتحدة على الساحة الأوروبية والدولية خلط أوراق اللعبة السياسية الدولية كافة، بحيث أخذ دور بريطانيا وفرنسا يتقزم، فبات العملاقان الألماني والياباني يحسبان للدور الأميركي كما ولدور الاتحاد السوفياتي الصاعد المتنامي حساباً كبيراً. اهتز النظام العالمي القديم القائم على توازن القوى والذي كانت تتزعمه بريطانيا. مع دخول الولايات المتحدة المعترك السياسي الأوروبي والدولي ما لبث أن سقط هذا النظام مع اندلاع الحرب العالمية الثانية. إلا أنه في مرحلة ما بين الحربين استمرت بريطانيا في لعب دورٍ حاسم في الشأن السياسي الدولي، وفرنسا في لعب دور أقل فاعلية.

ورغم انشغال الثورة الاشتراكية في بناء عالم جديد في الاتحاد السوفياتي، إلا أن الثورة الاشتراكية أولت الشأن الدولي اهتماماً خاصاً. تعاطت مع الدول الأخرى من خلال الأحزاب الشيوعية التي نمت في كل مكان، ما أعطى الاتحاد السوفياتي ثقلاً سياسياً أكثر مما كان مؤهلاً له إذا أخذنا قدرته الاقتصادية والعسكرية بعين الاعتبار. لكن الهوة الفاصلة بين النفوذ السياسي والثقل الاقتصادي رُدِمَتْ بكاملها مع قيام الحرب العالمية الثانية. فبات الاتحاد السوفياتي قوة عظمى في غضون ثلاثة عقود من الزمن بعد قيام الثورة الاشتراكية.

في العقود الثلاثة الأُولى من القرن العشرين ظهرت اليابان كنجم ساطع في سماء الشرق المكفهر. جاء تطور اليابان وتقدمها مفاجأة لأوروبا والغرب ومشعل أمل للشرق الراقد. نجحت اليابان في أن تصبح دولة كبرى من خلال جهد ابنائها ونشاطهم وطموحهم وتماسكهم ووحدتهم. بما أننا لسنا بصدد معرفة وقع اليابان وتأثيرها على دول الشرق بل بصدد معرفة الدور الذي لعبته اليابان على الساحة الدولية مقابل الدول الأوروبية والأميركية الفاعلة، سأختصر قولي بجملة واحدة: اليابان أعطت الأمل بأنه بوسع الشرق أن يتطور ويلحق بالغرب إذا شاء ذلك.

بروز اليابان كقوة كبرى خربط المشاريع السياسية والاقتصادية والعسكرية كافة، وحتَّم قيام تفاعل بين بريطانيا، الدولة العظمى، واليابان. وهذا التفاعل تحول إلى تعاون بينهما في فترة ما بين الحربين. لكن مشاريع اليابان وخططها كانت أوسع وأكثر شمولاً من أن تستطيع بريطانيا استيعابها. فحصل النزاع. لكن الدور الياباني لم يتوضح حتى الثلاثينات حيث أدى إلى اجتياح الصين وجنوب غربي آسيا وفي النهاية أدى إلى الاصطدام مع الولايات المتحدة الاميركية.

في الثلاثينات، برز هتلر بقوة على الساحة الألمانية فاختلطت الأوراق مجدداً في وجه النظام العالمي القائم على توازن القوى. فانقلب التوازن واختل النظام. إن الترتيبات التي وضعتها اتفاقية فرساي للسلام عام ١٩١٩ سقطت وبرز مكانها مشروع حلم لإمبراطورية المانية ألْفية ما لبث أن تجسد باحتلال المانيا أجزاء كبيرة من أوروبا، ما عجَّل في اندلاع الحرب العالمية الثانية. مع الحرب العالمية الثانية، انهار النظام العالمي القديم فتبدلت القوى وتغير اللاعبون على الساحة الدولية.

في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وقعت ثلاثة تطورات أساسية وحاسمة.

التطور الأول: إقفال باب الاستعمار الأوروبي التقليديّ.

منذ عصر الاكتشافات، والإنسان الأوروبي يتوسع ويسيطر على شعوب العالم الأخرى. فقد حصلت كلٌ من بريطانيا وفرنسا والبرتغال

واسبانيا على حصة الأسد من تركة العالم الذي سُمِّيَ فيما بعد بالعالم الثالث، كذلك شاركت المانيا وهولندا وبلجيكا وايطاليا في الاستيلاء على مساحات شاسعة من الكرة الأرضية. وكان من أحد أسباب الحرب العالمية الأولى الصراع بين بريطانيا وفرنسا من جهة والمانيا من جهة ثانية على المستعمرات في افريقيا وآسيا. ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان مبادىء ولسن الـ ١٤ وأهمها في هذا الصدد مبدأ تقرير المصير للشعوب، بدأ العد العكسي بالنسبة للاستعمار الأوروبي التقليدي الذي لم يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا مع نهاية الحرب العالمية الثانية. وما الانتداب الذي أقرّته عصبة الأمم سوى محاولة أخيرة يائسة من قبل بريطانيا وفرنسا لمد عمر الاستعمار الأوروبي.

وقد عجلّ مبدأ تقرير المصير في القضاء على الاستعمار الأوروبي المتمثل بالإحتلال العسكري والحكم المباشر من قبل دولة أوروبية لدولة أُخرى خارج اوروبا. لكن نهاية الاستعمار الأوروبي بدأت فعلاً باستقلال الولايات المتحدة الأميركية عن بريطانيا أواخر القرن الثامن عشر واستقلال معظم دول أميركا اللاتينية عن اسبانيا والبرتغال وبريطانيا وفرنسا. لكن نزاع الاستعمار الأوروبي في القرن العشرين تزامن مع قيام المنظمة العالمية الأولى في التاريخ - عصبة الأمم - التي نادت بتحرير الشعوب من استعمار شعوب أخرى، الأمر الذي أعطى التوجه الجديد وجهاً مُشرقاً وبرّاقاً ومشجعاً.

إن إقفال باب الاستعمار الأوروبي من طريق عصبة الأمم، جاء تطوراً ثورياً ركبت الثورة الاشتراكية عربته، فساهمت مساهمة كبرى، من طريق نشر الوعي السياسي في الدول المُستَعْمَرة، في دك حصون الاستعمار. كما زرعت النفحة الجديدة التي حملها ولسن في معاطاته مع الدول الاستعمارية الأوروبية الأمل في نفوس الشعوب المستعمرة. زد على ذلك أن اليابان، الدولة غير الأوروبية والشرقية الوحيدة التي تغلبت على التخلف، أنعشت الآمال بأن لدول آسيا خاصة حقاً في أن تكون بين الأمم

المستقلة والمتقدمة. خصوصاً وأن اليابان نجحت في أن تبقى خارج سيطرة الاخطبوط الاستعماري الأوروبي.

صحيح أن باب الاستعمار الأوروبي أُقفل مع نهاية الحرب العالمية الأولى وإعلان مبدأ تقرير المصير للشعوب، لكنه لم يزل بل تابع ألاعيبه وأساليبه الشيطانية لوقت طويل لاحق استمر حتى أواخر الستينات، ولم يلفظ أنفاسه حتى زوال الاتحاد السوفياتي، آخر امبراطورية استعمارية عرفها التاريخ، مطلع التسعينات. لكن الصحيح أيضاً أن الاستعمار الأوروبي فَقَدَ زخمه وعزيمته وعنفوانه مع يقظة الشعوب في كل مكان وانتشار مفهوم القومية الذي نادت اوروبا ذاتها به. فالنزعة القومية المبكرة ساهمت في طي صفحة الاستعمار في اميركا الشمالية أولاً وأميركا اللاتينية لاحقاً وفي باقي دول العالم فيما بعد.

إن قَفْلَ باب الاستعمار الأوروبي وتبوّء الولايات المتحدة الأميركية ـ المستعمرة البريطانية سابقاً مركزاً محورياً ـ وبروز اليابان كدولة كبرى أدى إلى اهتزاز النظام العالمي القائم وحتّم خلط الأوراق من جديد. لكن الحرب العالمية الأولى وما تبعها من أحداث وتطورات لم يقوّضا النظام العالمي القديم الذي استمر في العيش حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

التطور الثاني: تململ العالم الأسيوي ـ الإفريقي

مع انتشار الوعي السياسي وإعلان مبدأ تقرير المصير للشعوب وتعمق النزعة القومية في كل مكان والوعي بأن التخلف ليس سمةً دائمة لبعض المجتمعات بل مرحلة زائلة، مع اجتماع هذه المعطيات والأفكار، حدث تململ شامل في كل مكان تقريباً، وخاصة عند تلك الشعوب التي عانت وما تزال ويلات الاستعمار الأوروبي. سآتي الآن على ذكر التطورات العامة التي وقعت في بعض الدول الأسيوية والإفريقية، خاصة في الصين والهند ومصر وفلسطين.

الصين، الأمة العريقة بالحضارة والسياسة، لم تصبح مستعمرة بكل معنى الكلمة، لكنها عانت الأمرين من السياسة الاستعمارية البريطانية

في القرن التاسع عشر، واليابانية والأميركية في القرن العشرين. حاول الاستعمار البريطاني تفتيت الجسم الصيني كما فعل في الهند، لكنه ـ أي الاستعمار البريطاني ـ لم يستطع إخضاع الإرادة الصينية للهيمنة البريطانية.

لكن الثورة الوطنية الصينية التي قادها صن يات صن في مطلع القرن العشرين بعثت في النفس الصينية روحاً جديداً. فتم توحيد الإرادة الصينية وان بصورة جزئية، فانتعشت الآمال بإمكانية اعادة وحدة البلاد واللحاق بركب التطور والتقدم واستيقظت الروح القومية الصينية. نجحت الثورة الوطنية في ازاحة الكابوس البريطاني لكنها فشلت في تحقيق الوحدة الوطنية الكاملة بسبب بروز الحركة الشيوعية الصينية التي حالت دون تمكن الثورة الوطنية من تحقيق كل أهدافها، بل وأكثر من ذلك ما لبثت أن انهزمت أمام الشيوعيين.

ومما زاد في تعقيد الوضع، السياسة الاستعمارية التوسعية التي انتهجتها اليابان تجاه الصين من جهة، والسياسة الاميركية قصيرة النظر من جهة أخرى والتي حالت دون انتصار الثورة الوطنية بزعامة شان كاي شيك بمواجهة الشيوعيين، إذ لم تتمكن من إبعاد الخطر الزاحف من اليابان، فجاءت السياسة الأميركية المتممة والمعززة للدور الياباني التوسعي تؤدي إلى دحر شان كاي شيك وغلبة ماوتسي تونغ.

بغض النظر عن التوجه السياسي لكلا الفريقين المتنازعين، اختبرت الصين بين العامين ١٩٠٠ و١٩٤٩، تاريخ انتصار الثورة الشيوعية، صحوة قومية عارمة أدت إلى وحدة متراصة لم تشهدها الصين من قبل. مع تململ التنين الأصفر، ظهر عنصر جديد وفعّال نظراً لضخامة الصين ديمغرافياً واتساع مجالها الجغرافي. يبدو مما سبق ولحق وعلى وشك التحقق، أنه منذ بدء الانطلاقة الصينية الحديثة برزت بوادر تبشر بدور فاعل للصين على ساحة النظام العالمي، لكن استمر تهميش الدور الصيني على مستوى النظام العالمي القديم الذي كان قائماً بين الحربين العالميتين.

من ناحية ثانية، ظهرت الهند على خارطة السياسة الدولية مع محاولة القادة الهنود وعلى رأسهم غاندي في المناداة باستقلال الهند والتخلص من الاستعمار البريطاني الذي تربّع هائناً على مقدرات شبه القارة الهندية لأكثر من قرن من الزمن. لقد طبع الاستعمار البريطاني المجتمع الهندي بطابعه المميز وأدخل الكثير من المستجدات من دون أن تحدث الثورة القومية المماثلة للثورة الصينية الوطنية. جاء التحرك الهندي في مواجهة الاستعمار البريطاني هادئاً فأخذ طابع اللاعنف والمرونة. حقق اللاعنف الاستقلال دون أن يؤدي إلى وحدة قومية نظراً لتعدد الإثنيات الدينية والعرقية والثقافية التي يتألف منها المجتمع الهندي. كانت أولى بوادر الانقسام قيام دولة الباكستان بشطريه الغربي والشرقي وبقاء الجمهورية الهندية خليطاً متنافراً من الشعوب والأقوام والثقافات، أبقت حركة التحرر الهندية الهيكلية الهندية الممزقة على حالها وبقيت الهند، رغم استقطاب حركة اللاعنف الغاندية اهتمام العالم، على هامش السياسة العالمية، على الرغم من كونها تشكل ثاني أكبر تجمّع سكاني في العالم.

رغم كل هذا، تبقى الهند رمزاً للشعوب الطامحة للتحرر والاستقلال خلال الفترة بين الحربين العالميتين، خاصة وأنها حافظت على الأصالة والخصوصية الهندية في الوقت الذي سَعت فيه للتخلص من براثن الاستعمار والانطلاق نحو عالم الحداثة والعصرنة.

تتميز الهند عن الصين في أنها لم تلجأ إلى استيراد الايديولوجيات كما فعلت الصين في محاولتها للتحرر والعصرنة. حافظت الهند على التراث الأصيل دون أن توصد الباب في وجه المؤثرات الخارجية البنّاءة.

لم تترك حركة الاستقلال الوطنية الهندية أثراً ينكر في النظام العالمي خلال المرحلة التي فصلت أحداث الحرب العالمية الأولى عن الحرب العالمية الثانية. استمرت الهند بالعيش على هامش الأحداث الدولية الكبرى التي خضت العالم آنذاك.

أمّا في الزاوية الشمالية ـ الشرقية من افريقيا، فكان للتحرك السياسي المصري في العشرينات والثلاثينات تأثير على السياسة

البـريطانيـة، نظـراً للموقـع الوسـط الذي تحتله مصـر بين بلدان العـالمين العـربي والإسـلامـي. مصـر هـي قلب العـالمين العـربي والإفـريقي الجغـرافي والثقافـي والديني والـسياسـي. لذا، فكل تحـرك مـصـري يتـرك انـعكاسـاته على مجموعة الدول العربية والإسلامية. من أجل هذا، حاولت السلطات البـريطـانيـة الحاكـمـة في مصـر تقليل أهمية حـركة التحرر الـوطني التي قادها حـزب الوفد بقيـادة سعد زغلول. فالقاهـرة بموقعها المميز سياسياً وصحـافتهـا الفتيـة وأزهـرهـا العـريق، شكّلت تحدياً لسلطة بـريطـانيـا العظمى وخطـراً على مـستـعمـراتهـا فـي آسـيـا وافـريـقـيـا ومـصـالحهـا الاسـتراتيجية والتجارية. ونظراً لأهمية بريطـانيـا على الساحة الدولية آنذاك، فقد خشيت أن تسير المستعمرات البـريطـانيـة على خطـى مصـر وحـذوهـا حـذو النمـوذج المصري، وهـو مـا يضعـف هيبـة بريطـانيـا وبالتـالي يزعزع النظام العالمي القائم.

إن التحـرك المصـري السيـاسـي فـاق فـي أبعـاده ومقـاصـده التحـرك السياسي الهـندي. لذا، حاولت بريطانيا احتواءه بالوسـائل والطرق كافة، فنجحت الى حدٍ ما وبَقيَ النفوذ البـريطاني سائداً حتى ١٩٥٢ حين قامت الثورة المصرية.

وعلى مـرمى حـجـر مـن القـاهـرة، وقـع التـملـمل الـرابع والأخيـر. ففـي الثلاثينات قـامت انتفاضة كبـرى في فلسطين من قبل السكـان العرب ضد سيـاسـة بريطـانيـا ووعـد بلفور المُعطى لليهود بإقامـة وطن قـومي لهم في فلسطين. وبما أن السلطات البـريطـانيـة الحـاكمـة في فـلسطين بمـوجب صك الانتداب كانت تُسهل هـجرة اليهود وشـراء الأراضي من العـرب، ثار المواطنون العرب ضد سياسة سلطة الانتداب البـريطانية.

إن خطـورة وعـد بلفـور تكـمن فـي أنـه مهَّـد الطـريـق أمـام تبديل هـويـة الأرض والمجتمـع الفلسطيني، بحيث ان نسبة اليهود في فلسطين ارتفعت من ١٠٪ اثناء الحـرب العالمية الأولى لتصل الى ٣٥ ـ ٤٠٪ في الثلاثينات. إن تهويد فلسـطين بـدعم بـريطـانيـا ومسـانـدتهـا، سـاهم لاحقاً في اقـامـة دولة «اسرائيل»، لكن الانتفاضة العربية في فلسطين عكست وعياً عميقاً

بخطورة الموقف وانعكاساته المستقبلية على العالم العربي. لذا حاولت سلطات الانتداب أن تلجم التحرك الفلسطيني فنجحت، لكن بعد جهد كبير وموقتاً، إذ إن خطر الهجمة الصهيونية في فلسطين ترك صدًى قوياً في المنطقة العربية المجاورة. إن الانتفاضة الفلسطينية في الثلاثينات كانت الشرارة التي أشعلت التحرك القومي العربي في الخمسينات وأتت على آخر معاقل الاستعمارين البريطاني والفرنسي في العالم العربي ـ الإسلامي، وبدرجة أقل في افريقيا.

هذه التطورات منفردة شكلت خطراً ولو محدوداً على الاستعمار عامة والبريطاني خاصة. فمن وجهة نظر المُستَعمِر الذي كان بامكانه أن يعي الصورة كاملة، لقد شكلت هذه التطورات مجتمعة تياراً هادراً أدى إلى دق ناقوس الخطر. إذ بات النظام العالمي القائم على توازن القوى في اوروبا واستمرار الحكم الاستعماري في آسيا وافريقيا في خطر أكيد. منذ الثلاثينات، بدأ العد العكسي للاستعمار والنظام العالمي القديم القائم عليه فتدهور الوضع في معظم المستعمرات الرئيسية مع إطلالة الاربعينات وانشغال اوروبا بالحرب.

التطور الثالث: بزوغ فجر عصر المنظمات الدولية

قبل عصبة الأمم، المنظمة الدولية من دون منازع، عرف العالم الحديث تفاهماً عريضاً على أثر الحروب النابوليونية حال دون قيام نزاعات دولية حتى العام ١٩١٤، أي حوالى مئة عام. إن ما عُرف بتفاهم فينا أو اوروبا The Concert of Europe أرسى دعائم السلام في اوروبا بين الدول الكبرى في حينه. ونظراً لأن اوروبا كانت تتزعم مصالح العالم أجمع، عمَّ السلام أرجاء المعمورة. طبعاً قامت حروب محلية لكن جميعها بقيت ضمن اطار وحدود تفاهم اوروبا فلم تتطور إلى نزاعات دولية شاملة.

لكن نظراً لأن تفاهم اوروبا لم يأخذ طابعاً قانونياً وإدارياً محدداً ولم يضمّ دولاً خارج القارة الأوروبية، لم يأخذ شكل المنظمة الدولية ومضمونها. استمر هذا الحال إلى زمن اندلاع الحرب العالمية الأولى فاقترح الرئيس

ودرو ولسن قيام منظمة دولية تمنع الحرب وتحافظ على السلام. فقامت عصبة الأمم عام ١٩١٩ على أثر توقيع اتفاقية فرساي للسلام.

إن قيام ترتيبات تنظم علاقة الدول في بعض المجالات سبق قيام عصبة الأمم. قامت ترتيبات حول الملاحة البحرية والتبادل البريدي والاتصالات اللاسلكية والقانون الدولي، لكن عصبة الأمم كانت المنظمة الدولية الأولى التي قامت بهدف تنظيم علاقات الحرب والسلم والعمل على قضايا جديدة عدة بين الدول، مع التركيز على أن التعاون والتفاوض يجب أن يشكّلا أساس علاقات الدول بعضها ببعض.

مع قيام عصبة الأمم، انتشرت واتسعت فكرة التعاون الدولي وقيام المنظمات والهيئات التي ترعاها في شتى مجالات الحياة الدولية: الاقتصادية والعلمية والثقافية والرياضية... الخ. فباتت المنظمة الدولية اليوم جزءاً لا يتجزأ من الحياة الوطنية والتعامل الدولي على كل صعيد. انتظمت الحياة الدولية في منظمات تناولت كل أوجه الحياة الوطنية تقريباً.

شاءت المنظمة الدولية، وخاصة عصبة الأمم، أن تنظم شؤون الحرب والسلام بين جميع الدول المؤثرة على الساحة الدولية، وقد بعثت الأمل والرجاء في نفوس الشعوب المقهورة والمستضعفة، في امكانية تحقيق الاستقلال والتقدم والتطور والبحبوحة. إن شعوب «العالم الثالث» ساوت بين الاستقلال والتقدم والبحبوحة، لذا علقت الآمال الكبار على عصبة الأمم لتحقيق هذه الأهداف. نعرف أن العصبة باءت بالفشل في منع الحرب وفي تحقيق الاستقلال والبحبوحة لشعوب «العالم الثالث» ودوله، لكن الأمل لم يمت في القلوب، وهذا الرجاء وجد تعبيراً صادقاً في منظمة الأمم المتحدة التي أُنشئت عام ١٩٤٥.

واللافت في الأمر أن فكرة المنظمة الدولية التي لم تكن ممكنة قبل العصر الحديث، عصر المواصلات السريعة والاتصالات المتطورة، باتت اليوم فكرة عادية مقبولة ومطلوبة من الجميع، ويعود الفضل في ذلك الى هؤلاء الأفراد القلائل، مثل الرئيس ولسن، الذين وعوا حركة التاريخ

واتجاه التطور الإنساني فوضعوا اللبنات الأولى لما يمكن أن يكون عليه مستقبل البشرية في السنوات والعقود المقبلة. إن شمولية المنظمة الدولية إنما مهدت وتمهد الطريق لقيام الإنسان العالمي، الإنسان الإنسان وليس الإنسان الذي يحمل هوية تحدّ انسانيته. فالمنظمة الدولية المتمثلة بعصبة الأمم مهَّدت الطريق لقيام نظام عالمي جديد بدأنا نحن اليوم، مع مطلع القرن الحادي والعشرين، نتمتع بإيجابياته وثماره.

النظام العالمي عشية
الحرب العالمية الثانية وأثناءها

عشية الحرب العالمية الثانية اهتز النظام العالمي بقوة عندما بدا أن الحرب لا بد آتية وانهار نهائياً مع اندلاع القتال وإعلان الحرب، فساد منطق القوة وطغى. لكن للقوة الغاشمة منطقاً و«نظاماً» خاصاً بها. قبل التحدث عن منطق القوة ونظامها، سنراجع باختصار الأجواء المحيطة بالنظام العالمي في أواخر الثلاثينات قبل انهياره بصورة كاملة.

بين العامين ١٩٣٣ و١٩٣٨، استعادت المانيا كامل عافيتها الاقتصادية وقوتها العسكرية وموقعها السياسي في اوروبا والعالم. كانت المانيا القوية دائماً مصدر قلق من قبل القوى الأوروبية الأُخرى وخاصة فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفياتي. أما المانيا القوية جداً والتي تعتنق سياسة توسعية في اوروبا فقد باتت أكثر من مصدر قلق، مصدر خوف ورعب من الإنسان الآري المتفوق. إن النمط التوسعي القائم على ميكيافيلية مطلقة بعث بإشارات متناقضة الى جيران المانيا. فبريطانيا اعتقدت أنه بمقدورها احتواء الخطر الهتلري من دون الحاجة لمحاربة المانيا؛ أما فرنسا فتابعت تخبطها لدرجة أنها عجزت عن تكوين سياسة معقولة ومنطقية تجاه تهديدات المانيا النازية، أما الاتحاد السوفياتي المعني أولاً وأخيراً بالخطر التوسعي الألماني Lebensraum فقد حاول بصمت أن يهيىء نفسه للأسوأ على رغم ما تشكله خطة حربية من هذا النوع على بناء الاشتراكية الذي لم يكتمل.

«الرسالة» التي بعثتها الصحوة الألمانية كان لها وقعٌ مختلفٌ في الولايات المتحدة واليابان وإيطاليا. ان الولايات المتحدة الخارجة من عزلتها، والانهيار المالي الذي أصابها في الثلاثينات، تسلمت الرسالة الألمانية بكثير من الحيطة والحذر وبشيء من عدم الاهتمام. فالشعب الاميركي كان لا يزال يذكر ويلات الحرب العالمية الأولى والحملة التي شنها الرئيس ولسن من أجل الانضمام إلى عصبة الأمم. وفي الوقت ذاته وعت القيادة الأميركية خطر المانيا على السلام والاستقرار العالميين، إذ كان الشعب الاميركي جاهلاً لأبعاد هذا الخطر. فتكررت حالة الانفصام التي واجهها المجتمع الأميركي خلال الحرب العالمية الأولى وجميع الأزمات اللاحقة في تاريخه الحديث. فالمواطن الأميركي العادي ضيق الأفق Parochial فيما يعود إلى السياسة الخارجية. فرغم ادراك القياديين والمسؤولين أخطار المانيا النازية على الوضع العالمي، بقيت الهوة سحيقة بين تطلعات القياديين والمسؤولين وتجاوُب أكثرية الشعب الأميركي مع تطلعات قيادييهم، فحين انهار النظام العالمي ووقعت الحرب وجد الأميركيون أنفسهم غير مستعدين نفسياً وعسكرياً وإدارياً وتنظيمياً للاشتراك بالحرب منذ اللحظة الأولى. كما ان التناقض الحاصل بين القيادة والقاعدة الشعبية فوّت على القيادة والمسوولين الأميركيين دوراً فعّالاً في دعم النظام العالمي وتحاشي الحرب، الأمر الذي جعل هتلر يُراهن دائماً أن اميركا لن تخوض الحرب. هذا الرهان الهتلري عزز جرأة هتلر في التمادي في سياسته التوسعية بحيث أنه بات يعتقد أنه لا توجد قوة ثانية تحول بينه وبين تحقيق حلمه في قيام امبراطورية ألفية آرية متفوقة على انقاض العالم الأوروبي القديم المتدني بالنسبة للشعب الألماني المتفوق.

إن عظمة الولايات المتحدة الأميركية تكمن ليس فقط في طاقتها الاقتصادية والعسكرية، بل أيضاً في قوتها السياسية التي متى حزمت أمرها على القيام بعمل ما، لا تقف أمامها قوة أخرى تمنعها من الوصول إلى أهدافها. وهذا ما حصل فعلاً في الحرب العالمية الثانية. فما إن حزم الشعب الأميركي والقيادة الأميركية أمرهما، حتى بات مصير النازية

الهتلرية محتوماً، أي أصبح العملاق الألماني مسألة وقت. لقد قرر تدخل الولايات المتحدة مصير الحرب وحسم الأمر لصالح الحلفاء ومهد الطريق لقيام نظام عالمي جديد يختلف كل الاختلاف عن النظام العالمي القديم كماً ونوعاً، نظام تلعب الولايات المتحدة فيه دوراً حاسماً حتى بعد بروز الاتحاد السوفياتي كدولة عظمى منافسة. وعندما ننظر إلى الوراء ونحن مع مطلع القرن الحادي والعشرين، ندرك أن القرن العشرين كان قرن السلام الأميركي Pax Americana الذي بدأ خجولاً خلال الحرب العالمية الأولى وظهر بقوة في الحرب العالمية الثانية وما زال قوياً وحاسماً الآن، بعد ان شهد انهيار الاتحاد السوفياتي.

تردد صدى القومية الآرية الالمانية والسياسية التوسعية النازية في أرجاء العالم الياباني الذي كان متعطشاً لإثبات الذات وتفوق الجنس الياباني. ان تجاوب اليابان مع الطرح الألماني حتَّم قيام حلف بينهما: كون طموحهما مشتركاً ولا خوف من تصادمهما، وفي الوقت ذاته راهنا على عدم استعداد ومقدرة الولايات المتحدة ومقدرتها على الوقوف في وجههما. ارتكبت اليابان الحماقة نفسها التي ارتكبها هتلر في عدم ايلاء التحدي الأميركي الاهتمام اللازم، فكان الهجوم على بيرل هاربر ودخلت الولايات المتحدة في صراع مميت مع اليابان أدى إلى احتلالها اليابان كما فعلت في اوروبا قبل أسابيع قليلة إذ دخلت الجيوش الاميركية مع الحلفاء الأراضي الألمانية واستسلمت ألمانيا الهتلرية من دون قيد ولا شرط.

كذلك وجدت «الفلسفة» الهتلرية النازية صدىً في ايطاليا الفاشية بزعامة موسوليني الذي كانت أحلام اعادة مجد العظمة الرومانية تفوق بكثير استعداد وقدرات الشعب الايطالي المحب للحياة والرفاهية أكثر من حبه للانضباط العسكري والحرب. فجاء تجاوب موسوليني عبئاً استراتيجياً على المانيا الهتلرية. أضعف قوات المحور الحربية، بدلاً من أن يُعززها.

في اوروبا أيضاً، عرفت السياسة الالمانية الهتلرية نصراً وإن محدوداً يوم انهزمت القوات الشيوعية وحلفاؤها أمام قوات فرانكو بانتصار هذه

الأخيرة بفضل الدعم الألماني في الحرب الأهلية الأسبانية التي امتدت ما بين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. رغم الدعم الألماني الكبير لفرانكو، بقيت اسبانيا خارج نطاق الأحلاف وبالتالي تحاشت الهزيمة والاحتلال اللذين منيت بهما المانيا وايطاليا.

هذه الصورة السريعة لأحوال الدول الفاعلة والمؤثرة استراتيجياً على الساحة الدولية، تعطينا لمحة موجزة عن تبدل المناخات السياسية، وبدرجة أقل المناخات العسكرية التي طبعت هذه المرحلة من تاريخ العالم. أما أهم تبديل في طبيعة النظام العالمي، حتى قبل اندلاع الحرب العالمية ودخول الولايات المتحدة الحرب، فهو انتقال مركز القرار العالمي من لندن وباريس وموسكو وطوكيو الى واشنطن. باتت التوجهات والقرارات والتحركات التي تقوم بها الولايات المتحدة، مصدر اهتمام ودراسة من قبل زعماء اوروبا واليابان. إن انتقال مركز القرار في السياسة الدولية خارج أوروبا أدخل بُعداً جديداً على السياسة الدولية والنظام العالمي. بات النظام العالمي، بدخول اليابان السياسة الدولية، نظاماً «عالمياً» بكل ما في هذه الكلمة من معنى، بعد أن كانت مجريات الأحداث في اوروبا تقرر مصير العالم من دون أن يكون للعالم خارج اوروبا دورٌ حاسمٌ في الأمر. وهكذا، فإن تسلمَّ الولايات المتحدة مقاليد قيادة السياسة الدولية كان له أثرٌ عظيمٌ خارج اوروبا شمل اميركا اللاتينية والشرق الأوسط وشمال افريقيا والشرق الأقصى؛ وقد تزامن التسلم الأميركي للزعامة السياسية الدولية مع بروز قوى أخرى جديدة لعبت أدواراً متفاوتة في السنوات اللاحقة. لكن انتقال الزعامة السياسية الدولية إلى خارج القارة الأوروبية لم يحرم اوروبا ثقلها على الساحة الدولية واستمر هذا الواقع حتى بعد الحرب العالمية الثانية وإلى وقتنا الراهن، وهي الآن تحاول استرداد هذا الدور الريادي بتوحدها سياسياً بعد أن توحدت اقتصادياً.

خارج نطاق العالم الغربي واليابان، ظهرت في اميركا اللاتينية ثلاث دول: المكسيك، البرازيل والارجنتين. شاءَت هذه الدول أن تجد لنفسها موقعاً تحت مظلة السياسة الدولية خصوصاً بعد تبوّء الجار الأميركي

العملاق في الشمال مقاليد السلطة الدولية واستلامه زمام المبادرة على الساحة السياسية الدولية. نظم مبدأ مونرو Monroe Doctrine قاعدة التعامل بين دول اميركا اللاتينية قاطبة والولايات المتحدة من جهة، ودول اوروبا الغربية من جهة أخرى. وفق هذا المبدأ، كانت دول اميركا اللاتينية محمية اميركية (الولايات المتحدة). لكن عشية الحرب العالمية الثانية أرادت كل من المكسيك والبرازيل والارجنتين أن تعلن العصيان على «الأخ الكبير» في اميركا الشمالية، فنزعت الى انتهاج سياسة خارجية شبه مستقلة كنوع من التمرد على احتكار الولايات المتحدة لدور كل منها. لكن دور كل واحدة من تلك الدول بقي محدوداً حتى ولو رفعت الولايات المتحدة وصايتها عنها. لكن العبرة تكمن في التحرك ـ ولو التمهيدي ـ نحو الاستقلال الفعلي والتفتيش عن دور على الساحة الدولية. رغم كل الجهود المبذولة من قبل هذه الدول الأميركية اللاتينية، استمرت هيمنة الولايات المتحدة في فرض تبعية عليها.

عشية الحرب العالمية الثانية، انشغلت الصين باحتلال اليابان جزءاً لأرضها، في الوقت الذي كان الصراع الداخلي بين الوطنيين والشيوعيين قائماً. فباتت الصين مسرحاً دموياً لنزاع لم يتوقف إلا بهزيمة اليابان عام ١٩٤٥ وانتصار الشيوعيين عام ١٩٤٩. لذا بقي الدور الصيني مُهمَّشاً على صعيد السياسة الدولية والنظام العالمي، نظراً لاستمرار التدخل الخارجي السوفياتي والأميركي في شؤونها الداخلية.

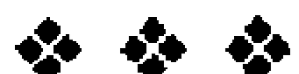
كانت الهند مشغولة في هذه الفترة «بحرب» الاستقلال ضد بريطانيا ومحاولة تحاشي تقسيم شبه الجزيرة الهندية الى دولتين: واحدة هندوسية وأخرى اسلامية. لذا استمرت الهند في تبعيتها لبريطانيا رغم الوهن الذي حل بالقوة البريطانية والمصاعب والتحديات التي كانت تواجهها في اوروبا. تعزّز دور الحركة الاستقلالية وذاعت شهرة غاندي عالمياً، لكن ذلك لم يكسبها المركز المرموق والمؤهلة له على مسرح السياسة الدولية.

من ناحية أخرى، الشرق الأوسط يحتل موقعاً مميزاً بسبب اكتشاف

البترول على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية والعراق وإيران. ونظراً لأهمية بترول الشرق الأوسط بالنسبة للغرب الصناعي، تصاعد الصراع من أجل السيطرة على منابع النفط من قبل الدول الغربية المصنعة عشية الحرب العالمية الثانية وأثناءها.

كما وان الصراع الصهيوني ـ الفلسطيني ـ العربي تزايد مع استقبال فلسطين لعشرات الألوف من اليهود الهاربين من الجحيم النازي وبروز تجاوب عربي مع الانتفاضة الفلسطينية في وجه الحركة الصهيونيةالتي باتت تدعمها كل دول الغرب بما فيها الولايات المتحدة. اشتد الصراع وبات يهدد استقرار المنطقة برمتها.

افريقيا السوداء بقيت على هامش الحياة السياسية الدولية، نظراً لكونها مستعمرة كبرى لدول اوروبية عدّة، ولكونها استمرت في تصدير المواد الأولية المحدودة والرجال لدعم الجهد الحربي البريطاني والفرنسي، على الرغم من بروز شخصيات افريقية قليلة مهَّدت للاستقلال في وقت لاحق.



مهدت الحرب العالمية الثانية الطريق أمام تغييرات أساسية وجذرية في خارطة العالم السياسية الدولية. فبالإضافة إلى الولايات المتحدة، برز الاتحاد السوفياتي كقوة سياسية وعسكرية واقتصادية يُحسب حسابها. فمن خلال العمل الحزبي والعقائدي المركز، قامت للاتحاد السوفياتي قواعد سياسية في اوروبا وآسيا واميركا اللاتينية زادت في نفوذه. ومن خلال خطط التنمية الخمسية، تمكن الاتحاد السوفياتي في أقل من عقدين أن يبني قاعدة صناعية قوية ساهمت بالتالي وبجهد ذاتي، بقيام قوات عسكرية منظمَّة وفعَّالة. فمع دخوله الحرب إلى جانب الحلفاء، ضمن الاتحاد السوفياتي لنفسه موقعاً جديداً مميزاً على الساحة الأوروبية والعالمية، ما اهّله لاحقاً لأن يصبح الطرف القويّ الآخر في الصراع الذي دار بعد الحرب بين الشيوعية والرأسمالية.

إن الحرب العالمية الثانية أدت إلى إضعاف كل من بريطانيا وفرنسا

رغم خروجهما منتصرتين من الحرب. لقد أنهكت الحرب المقهورين والمنتصرين على حد سواء. فدمرت الحرب المانيا تدميراً كاملاً وكان يمكن أن يكون هذا مصير اليابان لو أنها لم تستسلم.

ومن إفرازات الحرب العالمية الثانية أن الضعف الاقتصادي الذي حلَّ بدول اوروبا عامة وبريطانيا وفرنسا خاصة، سرَّع في نهاية الاستعمار، فقد باتت المستعمرات عبئاً ثقيلاً يجثم على كاهل هذه الدول والتي أخذت تمهد لاستقلال المستعمرات كي تحافظ على بعض النفوذ إذا هي أخذت زمام المبادرة في هذا السبيل.

هذه، باختصار هي الأجواء السياسية التي كانت سائدة على الساحة الدولية عشية الحرب وأثنائها إذ قوَّضت ركائز النظام العالمي القديم والتي مهدت لقيام نظام عالمي جديد لعب كلٌّ من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي دوره فيه. فإلى النظام العالمي خلال الحرب الباردة.

الفصل الرابع

النظام العالمي خلال الحرب الباردة

١ ـ تمهيد

امتدت الحرب الباردة من العام ١٩٤٥، سنة انتهاء الحرب العالمية الثانية الى العام ١٩٩٠، سنة الانهيار الكامل للاتحاد السوفياتي وكتلته الشيوعيّة. تميزت الحرب الباردة بقيام نزاع مكشوف بين الكتلة التي تزعمتها الولايات المتحدة الأميركية والكتلة التي تزعمها الاتحاد السوفياتي. وقد انتهت الحرب الباردة من دون وقوع حرب ساخنة بين القوتين العظميين.

وقد تمحور النزاع الاميركي ـ السوفياتي حول قضايا سياسية واقتصادية واستراتيجية عسكرية وعقائدية. أفضى النزاع بين الكتلتين الى تركيز نظام عالمي قائم على توازن الرعب والخوف من اندلاع حرب نووية شاملة تؤدي الى فناء البشرية. إن النظام العالمي الذي رتّب العلاقات بين الكتلتين، كان شديد الحساسية لمختلف التطورات، بما فيها تلك التي شملت الفكر والثقافة والفن. لذا فلم تكن التطورات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية العسكرية كافية بمفردها لتحديد ماهية هذا النظام العالمي. أثرت التطورات الأخرى، مثل غزو الفضاء وإقفال باب الاستعمار الأوروبي التقليدي وانتشار الوعي السياسي في شتى انحاء العالم والجاسوسية على أنواعها والألعاب الأولمبية وثورة الاتصالات والمعلومات والاكتشافات العلمية... الخ في رسم حدود النظام العالمي الثنائي وشكله ومضمونه، إضافة إلى العناصر الأساسية الأخرى.

سادت العالم بين ١٩٤٥ ـ ١٩٩٠ أجواء نفسية غير مريحة بالنسبة للحياة الإنسانية الفردية والجماعية. كان هنالك خوف دائم بلغ درجة الهلع من أن البشرية هي على عتبة الانتحار. ونتيجة لذلك وقعت أحداث جسام لم تكن لتحدث لولا الأجواء النفسية الملبَّدة التي طبعت علاقات الكتلتين القائمة على توازن الرعب. فالدول التي تعيش حالة هلع دائم لا تختلف في سلوكها عن الأفراد الذين يعيشون مثل هذه الحالة. وقد وقعت حروب ومآسٍ لم تكن لتقع لولا هذا الكابوس الذي جثم ٤٥ عاماً على صدر البشرية.

إلا أنني أراني أستبق الأحَداث، لذا سأنتقل الآن إلى الأجواء والتطورات التي طبعت النظام العالمي القائم في ظل الحرب الباردة.

٢ - الأجواء التي سادت الحرب الباردة

سيطر جو من التوتر وعدم الاطمئنان على العالم أجمع من جراء التنافس والنزاع بين الكتلتين المتواجهتين، فلم يسلم أي طرف من تطاير شرارات الحرب الباردة. فقامت الحروب بالوكالة نتيجة الصراع بين الجبارين، كما قامت مواجهة مباشرة على مرحلتين كادت تؤدي إلى قيام حرب نووية. ففي الخمسينات حاصرت القوات السوفياتية برلين الغربية في محاولة لضمها الى المانيا الشرقية؛ وفي مطلع الستينات حاصرت القوات الأميركية السفن السوفياتية المتوجهة الى كوبا وهي تحمل صواريخ مجهزة برؤوس نووية لنصبها في الأراضي الكوبية. في الحالتين، وخاصة الحالة الثانية، وصل الطرفان إلى شفير الحرب المدمرة. ومهما يكن من أمر، سعى الاتحاد السوفياتي في الحالتين الى مخرج لائق للأزمتين.

لكن الحروب بالوكالة كانت كثيرة وشملت كل القارات. فالحرب الكورية والحرب الفيتنامية وحروب الشرق الأوسط بين العرب واسرائيل وحروب الانفصال والتحرر والاستقلال في افريقيا وآسيا، والحصار الذي ضُرِبَ حول كوبا من قبل اميركا مباشرة بعد اعلان كاسترو هويته السياسية، وحروب اميركا الوسطى والانقلابات العسكرية في اميركا الجنوبية وأفريقيا وآسيا، تندرج جميعها تحت عنوان الحروب بالوكالة

التي دعم كل من الفريقين طرفاً فيها. ويجب ألا ننسى حرب التحرير الجزائرية وحرب انغولا وتشاد والحبشة. في فترة الحرب الباردة، وقعت أكثر من ٨٥ حرباً في ظل مساندة كل من العملاقين فريقاً في النزاع، بغض النظر عما إذا كانت الحرب الدائرة حرب تحرير واستقلال أو حرباً أهلية داخلية هدفها تغيير النظام وفلسفة النظام. في ظل هذا النوع الأخير من الحروب قامت الحرب الأهلية في لبنان ولم تنته إلا بانتهاء الحرب الباردة.

إذاً، خلال الحرب الباردة سيطر جو من عدم الاستقرار في كل مكان. فالمواجهة الاميركية - السوفياتية المباشرة التي خبرت مداً وجزراً على مدى الـ ٤٥ عاماً الماضية، تميزت بعدم اجتياز الخط الاحمر الفاصل الذي يشكل نقطة الخطر التي لا رجوع عنها. إن توازن الرعب وفّر حداً أدنى من «الاستقرار» بين الكتلتين من خلال النظام العالمي الذي كان قائماً. على الرغم من السيف المسلط على رقبة اوروبا واليابان، تمتعت كل من اوروبا واليابان بازدهار اقتصادي قلّ نظيره تحت المظلة الأمنية الأميركية، كما نعمت باستقرار سياسي لم تشهده منذ زمن طويل جداً. لقد وحّد الخطر السوفياتي اوروبا الغربية التي حثت الخطى نحو قيام اتحاد بين دولها. والغريب ان زوال الخطر السوفياتي عزز، بدلاً من ان يُضْعِفَ التوجه الأوروبي الوحدوي.

في النظام العالمي القائم خلال الحرب الباردة بَرَزَ كل من المانيا واليابان كعملاقين اقتصاديين لم يحاولا اعادة تسلحهما. فالمانيا باتت تعيش سلماً حقيقياً تحت المظلة العسكرية الأميركية ومن خلال الذوبان في المحيط الأوروبي الواسع، بينما اليابان، العملاق الاقتصادي والقزم السياسي والعسكري، ارتضى لنفسه أن يعيش في كنف المظلة العسكرية والأمنية الأميريكة فتمسك بمبدأ عدم اللجوء إلى الحرب ثانية.

لا يسعنا في هذا السياق إلا أن نشير إلى قلب الموازين الاقتصادية خلال الحرب الباردة بسبب الأعجوبتين الاقتصاديتين لكل من المانيا واليابان، إذْ أدّى ذلك إلى تراجع الحجم والمركز الاقتصادي للولايات

المتحدة أمام اليابان والمانيا. باتت اليابان والمانيا شريكين لكن منافسين للدور الاقتصادي الأميركي في اميركا ذاتها وفي العالم أجمع، فبات للنظام الاقتصادي العالمي ثلاث رؤوس بدلاً من رأس واحدة، كما كان الحال مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية.

عجّلت الحرب العالمية الثانية بنهاية الاستعمار الأوروبي العسكري وذلك بسبب خروج الدول المستعمرة منهوكة القوى وبسبب انتشار الوعي الوطني السياسي في المستعمرات وأيضاً لدعم الاتحاد السوفياتي لحركات التحرر والاستقلال، وأيضاً بسبب التشجيع المباشر من الولايات المتحدة. ونتج عن ذلك زيادة الدول المستقلة زيادة كبيرة بحيث ارتفع عدد الدول الأعضاء في الأمم المتحدة إلى أكثر من ١٨٠ دولة، بينما لم يتجاوز عدد الاعضاء عند قيام المنظمة الدولية ٥٠ عضواً. إن مضاعفة عدد الدول المستقلة أكثر من ثلاثة أضعاف أرهق النظام العالمي القائم فازدادت الحروب وكثرت النزاعات فكان للعملاقين صولات وجولات في هذا المضمار.

في هذه الفترة انقسم العالم اقتصادياً إلى ثلاث مجموعات: مجموعة دول العالم الأول المتطورة الغنية، وتشمل دول اوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان، ومجموعة دول العالم الثاني، وتضم دول الكتلة السوفياتية في اوروبا الشرقية وجمهوريات الاتحاد السوفياتي الـ ١٥، ومجموعة دولة العالم الثالث، وتضم الأكثرية الساحقة من بلدان آسيا (بما فيها الصين) وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وما لبث هذا التصنيف أن أصبح الشمال والجنوب. هذا التصنيف سَبّب الكثير من الانزعاج والمرارة في نفوس شعوب العالم الثالث ومواطنيه خاصة، فخيم جوٌ من الكراهية نحو دول العالم الأول وتسممت أجواء العلاقات بين العالم الثالث والعالم الأول على أكثر من صعيد، ووجدت هذه الدول دعماً من الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي أجَّج الصراع الأميركي ـ السوفياتي.

أحد افرازات الحرب الباردة، تحول النظام العالمي من كونه عالمياً كونياً بالإسم الى كونه عالمياً كونياً بالفعل. إن كونية Globalism النظام

العالمي مهّدت الطريق لأن لا تبقى دولة خارج النظام العالمي ولا تسلم دولة من رذاذ الصراع الأميركي ـ السوفياتي. فَبَعُدَ البُعد الكوني للاقتصاد والتجارة، وامتد ليشمل السياسة والثقافة. ومما أثر على اجواء الصراع على الساحة الدولية، بروز قومية فتية في دول العالم الثالث أدت إلى الاضطراب والبلبلة في علاقات هذه الدول بعضها ببعض وفي علاقاتها مع الدولتين العظميين.

خلال الحرب الباردة برز زخم الاقتصاد الأميركي في مواجهة الاتحاد السوفياتي الذي كان عملاقاً عسكرياً وسياسياً وقزماً اقتصادياً، الأمر الذي أثر سلباً على السياسة السوفياتية تجاه دول العالم الثالث وتجاه مُوَاطني الكتلة السوفياتية. لم يكن بوسع الاتحاد السوفياتي ان يقدم إلى دول العالم الثالث سوى السلاح وتكنولوجيا استهلاكية متخلفة، بينما كانت اميركا قادرة على تزويد هذه الدول بأسلحة متطورة وتكنولوجيا استهلاكية متقدمة. ربما كان عجز الاتحاد السوفياتي في مجاراة الولايات المتحدة في سياساتها تجاه العالم الثالث هو أحد أسباب سقوطه. في هذا السياق، لا بد من الإشارة إلى الغموض الذي يكتنف سقوط الأمبراطورية السوفياتية في وقت كان الاتحاد السوفياتي يتمتع فيه بقوة عسكرية هائلة. تسقط الامبراطوريات عادة بسبب خسارتها في الحرب، الأمر الذي لم يحصل بالنسبة للاتحاد السوفياتي. لذا نتساءل عما إذا كان الاتحاد السوفياتي «خسر» الحرب الباردة أمام الولايات المتحدة أم أن هنالك أسباباً أخرى كانت وراء هذا السقوط الكامل والمفاجىء؟ ان فك رموز لغز انهيار الاتحاد السوفياتي، متروك أمره للتاريخ والمستقبل.

إن انهيار الاتحاد السوفياتي أدى إلى قيام فراغ سياسي على مستوى النظام العالمي لم تملأه قوة أخرى. هذا الفراغ ساهم في ظهور الولايات المتحدة كالقوة العظمى الوحيدة على الساحة الدولية قادرة على ملء هذا الفراغ. سقط النظام العالمي الثنائي مع سقوط الاتحاد السوفياتي، لكن لم يحلّ محله نظام عالمي جديد. بقي الفراغ السياسي قائماً، وهو يفتش عن قوة أو قوى تعيد التوازن الى النظام العالمي. الحرب الباردة، رغم

مساوئها الكثيرة والسلبية أرست قواعد نظام عالمي ثابت ومستقر استطاع العالم برمّته أن يتعايش معه.

فترة الحرب الباردة جلبت معها مرحلة تركيز وانطلاق المنظمة الدولية - منظمة الأمم المتحدة التي تأسست عام ١٩٤٥. ضمت الأمم المتحدة عند تأسيسها ٥٠ دولة ما لبث هذا العدد أن تضاعف مرات عدة. فاليوم، هي تضم أكثر من ١٨٠ عضواً. رغم ان مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عكس نفوذ القوى الفاعلة على الأرض آنذاك، إلا أن الجمعية العمومية باتت ندوة حوار ونقاش حيث يُسمع صوت كل دولة عضو، ما سمح لكل دولة عضو أن تمارس نفوذاً على الساحة الدولية، بغض النظر عن حجم هذه الدولة وقوتها وثروتها ومستواها.

لعبت الأمم المتحدة من طريق أجهزتها الرئيسية (مجلس الأمم، والجمعية العمومية والسكرتاريا) دوراً سياسياً مهما في مرحلة الحرب الباردة. كما أن المنظمات الأخرى الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التابعة لها نجحت في خلق مجالات عالمية على صعيد التنمية والصحة والعمل والثقافة... الخ. كان المستفيد الاكبر منها دول العالم الثالث. فالمنظمة الدولية من خلال الدور الذي قامت به ساهمت في منع دخول نزاعات كثيرة في حروب، وساهمت في تخفيف ويلات الحروب التي اندلعت، وأقدمت من خلال قوات حفظ السلام على تركيز دعائم السلام في أكثر من مكان وبلد. لقد ساهمت الأمم المتحدة، رغم الموارد المادية القليلة المتوافرة لها، ورغم عرقلة مسيرتها من قبل الدول الكبرى، مساهمة كبرى في استقرار النظام العالمي الذي كان قائماً، وحدّت من سلبيات تدخل الدولتين العظميين في شؤون الدول الأخرى الداخلية.

إن المنظمة الدولية مرشحة أن تساهم مساهمة كبرى في دفع عجلة السلام قدماً والمشاركة في إيجاد الحلول الناجعة للكثير من القضايا الدولية الرئيسية، كالتنمية والتلوث والبيئة والتفجر السكاني والفقر والمرض، بالإضافة الى دور سياسي بارز على ساحة النظام العالمي والسياسة الدولية.

ومن اللاعبين الرئيسين في النظام العالمي أثناء الحرب الباردة، كانت اوروبا الموحدة والصين. استعادت اوروبا الغربية عافيتها الاقتصادية ، وبالتالي عافيتها السياسية عندما ضخت الولايات المتحدة بمليارات الدولارات لإعادة إعمار ما دمرته الحرب العالمية الثانية، وذلك في غضون سنوات قليلة. وقد ساهم مشروع مارشال في بعث النشاط في المانيا وبريطانيا وفرنسا.. الخ والصمود في وجه الخطر العسكري القادم من الشر ق. فقام حلف شمال الأطلسي الذي تدعمه وتشارك فيه الولايات المتحدة كخط دفاع قوي في وجه التهديد السوفياتي. حلف الأطلسي كان أهم خط دفاعي في الحرب الباردة بمواجهة الاتحاد السوفياتي، وبالتالي أهم دعائم النظام العالمي الثنائي القطبية.

ساهم الحلف الأطلسي في توحيد كلمة اوروبا الغربية سياسياً وعسكرياً، ومن ثم اقتصادياً. فالعيش تحت مظلة الخطر المشترك حفزّ دول اوروبا الغربية ودفع بالعاملين للوحدة الاوروبية إلى محاولة قيام قاسم مشترك اقتصادي وسياسي ايجابي بدلاً من العنصر السلبي للوحدة فقط، أي الخطر الخارجي، فنجحوا إلى درجة كبرى، فقام الاتحاد الأوروبي. ومن سخريات القدر ان الاتحاد الاوروبي، أصبح في وضع يمكنه من منافسة الولايات المتحدة، الدولة التي بفضل مساعدتها السّخية استعادت اوروبا مكانتها اقتصادياً وسياسياً، تماماً كما فعلت اليابان اقتصادياً فقط.

لعبت اوروبا الغربية في مطلع الحرب الباردة دوراً تابعاً للسياسة والزعامة الاميركيتين. كما أن دورها العسكري جاء متمماً للدور الأميركي. لكن في السبعينات أخذت اوروبا تتململ من الهيمنة الأميركية السياسية، لكن الخطر السوفياتي منعها من انتهاج سياسة مستقلة عن العملاق الأميركي وكان عليها لأجل ذلك، أن تنتظر نهاية الحرب الباردة وتحقيق خطوات أوسع نحو الوحدة الاقتصادية الكاملة وولوج باب الوحدة السياسية والعسكرية. مهما يكن، إن هذه الناحية تخص مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

لكن الإنصاف يقتضي القول بأن اوروبا الغربية العاملة للوحدة كانت دعامة كبرى للولايات المتحدة في مواجهتها مع الإتحاد السوفياتي. فقد ساهمت اوروبا الغربية، في أكثر من مجال خارج اوروبا، في التصرف كحليف مخلص للولايات وفي تنفيذ سياستها في دول العالم الثالث وأوروبا الشرقية، إذ قدمت الدعم المادي والسياسي والعسكري في أكثر من مناسبة.

أما الدولة الأوروبية الأكثر حساسية للدور الاميركي في اوروبا الغربية فكانت فرنسا. ففرنسا حاولت الإبقاء على قرارها السياسي والعسكري مستقلاً قدر المستطاع، فنهجت سياسة مستقلة نابعة من المصلحة الفرنسية، خاصة في مستعمراتها السابقة في افريقيا، وحافظت على خيارها العسكري، خاصة على صعيد السلاح النووي، فاصطدمت مع السياسة الاميركية أكثر من مرة. على الرغم من هذا التباين بين السياسيتين الأميركية والفرنسية، بقيت فرنسا حليفاً أميناً للولايات المتحدة ضمن اوروبا.

ومع مطلع الستينات استعادت السياسة الصينية الخارجية زمام المبادرة بعد أن بقيت تابعة للسياسة السوفياتية منذ قيام الصين الشعبية عام ١٩٤٩. اختطت الصين لنفسها، بزعامة ماو تسي تونغ، سياسة منافسة للشيوعية السوفياتية ومناوئة للسياسة الاميركية. وقد زاد الشرخ الصيني ـ السوفياتي اتساعاً مع الوقت، بينما حدث تقارب مع الولايات المتحدة مع اقتراب وبَعْدَ نهاية الحرب في فيتنام. في أوائل السبعينات كانت الصين عملاقاً ديمغرافياً وقزماً اقتصادياً وعسكرياً رغم امتلاكه السلاح النووي. ومع تسلم دنغ زياوبنغ السلطة بعد وفاة ماوتسي تونغ عام ١٩٧٦، انفتحت الصين اقتصاديا على العالم الخارجي، فحدث تحول نحو الاقتصاد الرأسمالي شمل مناطق ومدن الساحل الجنوبي. ففي أقلّ من عقد حدثت الاعجوبة الصينية، بعد المعجزتين الاقتصاديتين الالمانية واليابانية، فنمت الصناعات وازدهرت الخدمات والتجارة وعاشت المناطق والمدن التي شملها التحول الاقتصادي والبحبوحة. حتى المناطق الداخلية

البعيدة أصابها رذاذ الأعجوبة الاقتصادية فاختفت المزارع الجماعية والمصانع التي تشكل عبئاً على الاقتصاد القومي.

وقد واكب التحرر الاقتصادي الصيني المحدود ضغط سياسي من المطالبين بالتحرر من الحكم الشيوعي، فنمت حركة المعارضة الشعبية حتى بلغت حد المواجهة مع السلطة فجرى اعتقال عدد كبير من المعارضين، ما أجج العواطف والمشاعر فجَرَتْ مواجهة كبيرة عام ١٩٨٩ في بكين استعملت فيها السلطة الدبابات لتفريق المتظاهرين الذين فاق عددهم المليون. لكن مجزرة «ساحة تيانتمن» قضت على كل أمل بالتحرر السياسي النابع من القاعدة الشعبية. ويبقى السؤال: هل ستعمل السلطة بعد دنغ زياوبنغ على ادخال تبديل سياسي كما جرى في المجال الاقتصادي؟ المهم في الأمر ان النجاح الاقتصادي الذي حققته الصين حتى العام ١٩٩٠ سمح لها بأن تطمح لِلَعْبِ دور قيادي في الحوض الباسيفكي الى جانب اليابان والدول الأخرى المجاورة.

يبدو أن الصين تود التخلي عن الإرث الاشتراكي تدريجياً، وليس كما فعلت روسيا، بحيث لا يؤدي التحول الى اقتصاد السوق والتحرر السياسي الى الفوضى والمشاكل الاجتماعية الأخرى.

في هذه المرحلة من تاريخها، تخلت الصين عن دورها العالمي النابع من الايديولوجية الاشتراكية وهو تصدير الثورة، ويبدو أنها اكتفت في لعب دور محدود في الحوض الباسيفيكي ربما للعب دور أهم على الساحة الدولية بعد استكمالها التحول الاقتصادي وولوجها باب التحول السياسي.

لقد ربطت الصين عربة اقتصادها بقطار الاقتصاد العالمي الرأسمالي، ما يؤهلها في المستقبل القريب ان تطمح للعب دور أعم وأهم من خلال النظام العالمي لما بعد الحرب الباردة. جاء التحول الاقتصادي الصيني منذ ١٩٧٦ نقطة تحول في تاريخها الحديث فتخلت عن العزلة التي فرضتها على نفسها وباتت تمارس دوراً جديداً مقبولاً من الأسرة الدولية التي يتزعمها الغرب واليابان.

من أهم التطورات الدولية التي أثرت في النظام العالمي خلال الحرب الباردة، تراجع القوة الاقتصادية الاميركية المطلقة والنسبية. فمن ناحية أولى، عانى الاقتصاد الاميركي الركود، فانخفض الناتج القومي العام بالنسبة للسنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية. ومن ناحية ثانية، نجحت كل من اليابان والمانيا في زيادة دخلها العام بحيث باتت اليابان، الدولة التي لا يزيد عدد سكانها على نصف عدد سكان الولايات المتحدة، تحتل الرقم الثاني في الاقتصادي العالمي. إن التراجع الاقتصادي الاميركي المطلق والنسبي ساهم في بروز رؤوس عدة للاقتصادي العالمي بعد أن كانت الهيمنة الأميركية في هذا الصدد مطلقة. طبعاً، هذا التراجع أثر قليلاً على الدور الاميركي السياسي والعسكري، لكنه يحمل بشائر غير مرضية لأميركا في المستقبل وهو ما يهدد دورها في النظام العالمي ومداه في العقود المقبلة. إن التباين الأميركي مع الدول الأخرى الحليفة لم يبرز بقوة خلال الحرب الباردة نظراً لقوتها العسكرية والسياسية المهيمنة والتي لم يشأ أحد من الحلفاء أن تتزعزع في المواجهة مع الاتحاد السوفياتي.

سبب آخر منع تدهور الدور الاميركي السياسي وهو عزلة الاقتصاد السوفياتي وَضُعفه. فالاقتصاد السوفياتي الذي حقق نجاحات كبرى في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات، تراجع كثيراً في السنوات اللاحقة وذلك لأسباب عدّة: التخطيط المركزي وتخلف الزراعة والتركيز على الصناعات الثقيلة فقط وعدم ايلاء الناحية الاستهلاكية الاهتمام الذي تستحقه. فالاقتصاد والتكنولوجيا السوفياتية لم يتمكنا في يوم من الأيام من منافسة الاقتصاد والتكنولوجيا الغربية عامة والأميركية خاصة. استطاعت اميركا ان تحتوي الخطر السوفياتي السياسي (العقائدي) والعسكري وبرزت كنموذج استهلاكي ناجح لمجتمعات الكتلة السوفياتية خاصة والدول الشيوعية الأخرى ودول العالم الثالث. لم تجد اميركا كبير مشقة في مواجهة الدعم السوفياتي لبعض دول العالم، نظراً لضآلة المساعدات التي استطاع الاتحاد السوفياتي تقديمها.

ومما عزز الدور الأميركي على الساحة الدولية، المساعدات الكبيرة التي قدمتها الى دول العالم الثالث بمساهمة الدول الصناعية الأخرى مثل اليابان والمانيا وفرنسا وبريطانيا. والجدير ذكرهُ في هذا الصدد أن اليابان باتت الدولة الأولى المانحة للمساعدات الاقتصادية في العالم.

لم يقتصر النظام العالمي خلال الحرب الباردة على النزاعات الدائمة والحروب بالوكالة واحتواء فريق لنشاط الفريق الآخر، بل تخللت الحرب الباردة محاولات للتقارب والتعاون. وسمحت اميركا للاتحاد السوفياتي بشراء ملايين الأطنان من القمح والحبوب الأميركية على مرِّ السنين، ما ساهم في تحسين الوضع الغذائي السوفياتي. ومع أن هذه الصفقات كان لها طابع تجاري صرف، إلا أنها ساهمت في ترطيب الأجواء السياسية. حدث أيضاً تعاون في مجال الرحلات الفضائية والتبادل الثقافي وعقدت اجتماعات على مستويات مختلفة بما فيها اجتماعات قمة، بالإضافة إلى تركيب خط الهاتف الأحمر المباشر بين القيادتين على اثر أزمة «خليج الخنازير». إلا أن هذه المساهمات بقيت قليلة التأثير على مجمل العلاقات بين الطرفين التي تميزت دائماً بالخلافات الحادة والنزاع المزمن.

في مرحلة الحرب الباردة أيضاً، لجأ الطرفان إلى الجاسوسية المضادة لتقويض نظام الطرف الآخر. رُصدت المبالغ الهائلة وخُصصت الموارد الضخمة وجُند عدد كبير من أصحاب المؤهلات على أنواعها واستُخدمت أحدث الوسائل العلمية والتكنولوجية من أجل تحقيق سباق في شتى المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية والنفسية. لا نبالغ إذا قلنا إن جواً من الرعب خيم على المجتمعات المتداخلة ووقعت أحداث على هذا الصعيد تفوق الخيال. ونظراً لأهمية السباق التكنولوجي على مصير الصراع القائم، لعب «التجسس التكنولوجي» دوراً بارزاً وشغل حيزاً كبيراً من اهتمام المسؤولين عند الطرفين.

من الأزمات الرئيسية خلال الحرب الباردة أزمة الشرق الأوسط والحروب العربية ـ الإسرائيلية وتداخل هذه الأزمة مع الشؤون البترولية

في السبعينات وما بعد. تعود الأزمة «العربية ـ الإسرائيلية» الى ما قبل قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨. وقد استأثرت هذه الأزمة باهتمام المجتمع الدولي منذ قيام نظام الانتداب في الشرق الأوسط. إلا أن الأزمة ظهرت بزخم أول مرة في الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى التي ما لبثت أن أفضت إلى حرب ١٩٥٦، وحرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، وحرب لبنان عام ١٩٨٢.

ونظراً لضعف الموقف العسكري العربي تجاه اسرائيل، سعت الدول العربية وبخاصة مصر وسوريا للحصول على السلاح من مصادر غير المصادر الغربية المنحازة لإسرائيل، فكانت صفقة السلاح التشيكي التي عقدها جمال عبد الناصر مع السوفيات في أواسط الخمسينات، الأمر الذي أثار حفيظة الولايات المتحدة فناصبت مصر العداء.

وفي ظل هذه الأجواء المشحونة قامت حرب ١٩٥٦ بهدف الإطاحة بعبد الناصر، وقد أدت إلى هزيمة العرب في حرب ١٩٦٧. شكلت هزيمة ١٩٦٧ نقطة تحول إذ إنها ثبتت أقدام اسرائيل في فلسطين وبات هنالك قبول ضمني لهذا الواقع من قبل العرب، ما مهد الطريق لاحقاً للتفتيش عن مخرج للأزمة وللوجود الفلسطيني.

وبعد حرب ١٩٧٣، باتت اسرائيل مقتنعة بضرورة إيجاد مخرج للأزمة خاصة حين أدركت أن الزمن بات يعمل أيضاً لصالح العرب كما عمل لصالحها ردحاً طويلاً. فمع ظهور قوة حركة التحرر العربية على الساحة الاقليمية وبروز البترول كقوة اقتصادية وسياسية يمتلكها العرب، بدأ التفتيش الجدي عن مخرج يحفظ ماء الوجه للجميع ـ فكانت معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية على أثر زيارة السادات لإسرائيل عام ١٩٧٨ وعملية السلام التي تبعت ذلك.

كادت الحروب العربية ـ الإسرائيلية تؤدي الى مواجهات مباشرة بين الجبارين، الأميركي والسوفياتي، لولا تدارك المسؤولين لدى الطرفين فكانوا يتعاونون من خلال الأمم المتحدة لوقف النزف وتردي الأحوال. لا نغالي إذا قلنا إن أزمة الشرق الأوسط كانت معياراً للتنافس والتعاون بين

الدولتين العظميين فاهتز النظام العالمي اثناء حروب ١٩٥٦، ١٩٦٧ و١٩٧٣.

ومن التطورات الرئيسية في هذه الفترة، التململ وحركة التحرر العربية وأفول نجم هذه الحركة مع حرب ١٩٦٧. كذلك ظهرت ردة فعل لهزيمة حرب الأيام الستة في المحيط الإسلامي الواسع تمثلت بالثورة الإسلامية في ايران، وأثرت هذه التطورات على الحرب الباردة والنظام العالمي.

بدأ التململ العربي مع خيبة الأمل التي مُنيَ بها العرب من جراء تعاونهم مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى، وما تبع ذلك من تواطؤ بين الحكومة البريطانية والحركة الصهيونية بخصوص فلسطين ومن ثم اتفاق سايكس ـ بيكو الذي مزَّق منطقة الشرق الأوسط إلى كيانات عربية مستقلة بعد ان بات حلم تحقيق الوحدة العربية قريب المنال. خيبة الأمل هذه لم تؤدِ سوى إلى القبول بالأمر الواقع. في هذه المرحلة قامت دولة «اسرائيل» على أرض فلسطين فتحولت خيبة الأمل إلى نكبة حقيقية.

في أجواء ضياع فلسطين قامت حركات سياسية عدة في سوريا والعراق، وما لبث ان خطفت مصر الأضواء فبرزت شخصية عبد الناصر المهيمنة. كانت حركة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢ حركة إصلاح مصرية ما لبِثَ عبد الناصر ان طوّرها لتصبح حركة تحرر مصرية. ونظراً لموقع مصر المميز في قلب العالم العربي، حصل تجاذب وتجاوب بين الحركة الناصرية وحركات التحرر العربية في شتى ارجاء العالم العربي.

تزعَّم عبد الناصر حركة الوحدة العربية فقامت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ وانتعشت آمال العرب بتحرير فلسطين على يد مصر وتأجج الصراع بين فرنسا وحركة التحرير الجزائرية وانتهى الأمر بخروج فرنسا من الجزائر واستقلال هذه الأخيرة. كما أنه للمرة الأولى واجهت الشعوب العربية موضوع التخلّف فكانت الحملة المصرية الى اليمن.

حلقت الآمال العربية في الوحدة والتحرر ونبذ التخلف والتخلص من الكابوس الإسرائيلي. بعث عبد الناصر الروح في الجسم العربي، إلا أن هذا الجسم العربي كان لا يزال يعاني المرض فلم تنفع معالجاته في اعادة

الصحة اليه فكانت كارثة ١٩٦٧. وتقلّص دور عبد الناصر، الذي توفي عام ١٩٧٠.

في هذه الاثناء ظهرت منظمة التحرير الفلسطينية التي عملت على تزعم حركة التحرر الفلسطيني. فانتعشت الآمال مجدداً. لكن الخلافات الفلسطينية ـ الفلسطينية، والخلافات الفلسطينية ـ العربية قضت على كل آمال الوحدة والإنطلاق. فتراجعت الوحدة العربية كحركة تحرر شاملة وحلت محلها حركات «تحرر» وطنية بحيث سعت كل دولة عربية على حدة لشق طريق مستقلة.

حرب ١٩٧٣ قضت على آخر أمل لنهضة عربية شاملة بزعامة مصر فتخلت مصر عن دورها الريادي ولم تملأه أيٌّ دولة عربية أخرى حتى الآن. خاض الفلسطينيون حروباً «دون كيشوتية» أضرت بالقضية الفلسطينية وأساءت الى القضية العربية الشاملة.

في ظل هذا الفراغ السياسي في الشرق الأوسط، بدأ التحرر السياسي الإسلامي. واكبت الصحوة الإسلامية في العالم العربي اليقظة العربية مع أول اتصال مباشر بين الغرب والشرق. فحملة نابليون إلى مصر عام ١٧٩٨ حركت المشاعر، فَخَبِرَ المصريون قبل غيرهم زخم الحياة الغربية فهزتهم. واستمر التواصل والتأثير على مجريات الحياة المصرية من خلال محاولات محمد علي عصرنة المجتمع المصري. كان لهذه الاتصالات صدى تردد بعيداً في أرجاء العالم الإسلامي حيث تشغل مصر مركزاً مميزاً من خلال جامع الأزهر.

وكان للتفاعل الغربي ـ المصري تأثير على صعيدين. التوجه الإسلامي التقليدي وإدخال أفكار القومية العلمانية الى المجتمع المصري. سار التوجهان جنباً إلى جنب حتى العشرينات من القرن العشرين، حيث طغى التوجه القومي على التوجه الديني. ومع إفلاس التوجه القومي بهزيمة ١٩٦٧ وتردد صدى هذه الهزيمة في جنبات العالمي العربي والإسلامي، برز التوجه الديني من جديد، الى الواجهة، فهو لم يكن هاجعاً قط.

ومع حرب ١٩٧٣، قُضي نهائياً على أمل التخلص من اسرائيل، فأخذ التوجه العام منحاً جديداً تمثل بظهور الأخوان المسلمين مجدداً في مصر وفي دول عربية أُخرى، وانطلاق واتساع الحركة الخمينية في ايران وترسخ الدعوة الإسلامية في المملكة العربية السعودية ومدها بالموارد والقدرات التي أصبحت ممكنة بتوفر مليارات البترو ـ دولار، وانتشار الفكر الإسلامي الأصولي في الباكستان ومصر، وإيران، وكذلك انطلاق الدعوة التبشيرية الإسلامية واتساعها باتجاه افريقيا والغرب.

تطوران لافتان حدثا خلال فترة الحرب الباردة هما حصول الأغلبية الساحقة من الدول الأسيوية والإفريقية المستعمرة على الاستقلال، وظهور يقظة إفريقية أصيلة.

عشرات الدول في آسيا وأفريقيا حصلت على الاستقلال نتيجة لتردي أوضاع الدول المستعمرة اقتصادياً، فارتفع عدد الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة إلى أكثر من ١٨٠ عضواً. هذا العدد الهائل أثَّر على النظام العالمي القائم وضاعف من الجهود كي لا تدب الفوضى والحروب والنزاعات في الحياة الدولية، في وقت كان الخلاف فيه على أشده بين العملاقين والمعسكرين المتواجهين.

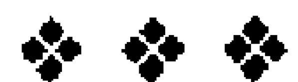
وعلى خط موازٍ، برزت بقوة يقظة سياسية عارمة في أنحاء مختلفة من القارة السوداء ـ حدثت تبدلات في الاجواء السياسية عكست التقدم السريع الذي خبرته المجتمعات الإفريقية القبلية البدائية. صحيح أن الدول الإفريقية المختلفة استمرت في المعاناة من التخلف والفقر والمرض، إلا أن بعضها عكس بعض النجاح في إرساء قواعد استقرار وتقدم. ان يقظة الشعوب الأفريقية والتنافس بين القوتين العظميين وضعا إفريقيا على خارطة العالم السياسية لأول مرة ولو موقتاً.

٣ ـ تطورات غير سياسية ذات أبعاد سياسية

حدثت تطورات اقتصادية واجتماعية وعلمية وفكرية عدة خلال فترة الحرب الباردة، تركت أثرها الكبير في النظام العالمي الذي كان قائماً ما بين العامين ١٩٤٥ و١٩٩٠. هذه التطورات جاءت كونية في أثرها، إذ

تـركت بصـمـاتهـا عـلـى كل المجـتـمعـات والأفـراد فـي كل مـكـان من الكـرة الأرضية فأثرت وتأثرت بالأجواء السياسية الدولية السائدة.

شملت هذه التطورات قضايا ومسائل متنوعة تراوحت بين تجارة المخدرات واكتشاف مرض الإيدز والحملات لوقف التدخين، الى تراكم مليارات البترودولارات وتجارة السلاح، مروراً بتآكل مفهوم السيادة القومية وبروز شخصية الإنسان العالمي، إلى قضايا الطاقة والتفجر السكاني والتلوث. أثّر بعض هذه القضايا تأثيراً مباشراً في حين كان لبعضها أثر غير مباشر على الحرب الباردة ومضمون النظام العالمي. في كل الأحوال، هذه التطورات ساهمت كثيراً في تقريب الشعوب بعضها من بعض وخلقت أجواء تعاون مريحة تخطت الحواجز والعقبات التي فرضتها النزعة القومية والسياسات المنبثقة منها. فمع أجواء توازن الرعب المضطربة قامت أجواء ارتخاء وسلام داخلي لدى الكثيرين بأن الانسان لا بدّ خارج من هذا النفق المظلم. هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية، ساهمت كثيراً في رأب الصدع بين المجتمعات المتنازعة ومهدت السبيل الى مستقبل أفضل. فما ان انتهت الحرب الباردة حتى ساعدت هذه التطورات في البحث الإيجابي عن نظام عالمي يدفع بالبشرية الى الأمام ويمنع عودة عقارب الساعة إلى الوراء.



التطورات المذكورة أعلاه أكثر من أن تعدّ، لكن سأحاول المرور سريعاً على البعض منها، إلا أني حائر من أين أبدأ لأن جميع هذه التطورات مهمة للغاية، وهي ذات أثر إنساني شامل وفعال.

في فترة الحرب الباردة، انطلقت ثورة في مجالات الاتصالات والمعلوماتية والمعلومات. شملت هذه الثورة تعميم وسائل الاتصال المعروفة لتاريخه وإدخال وسائل جديدة ومتطورة لم تكن معروفة سابقاً. استخدم التلفزيون والكومبيوتر والبث الفضائي التلفزيوني، بالإضافة إلى توسيع نطاق انتشار الراديو والتلفون. ربطت وسائل الاتصال هذه العالم أجمع

فبات «قرية كونية» حدودها ليست فقط حدود الكرة الأرضية، بل ربطت أجزاء من الفضاء بالإنسان على الأرض. لكن تأثير هذه الثورة تعدى نقل الأخبار والمعلومات إلى ادخال ثورة في وعي جميع ابناء البشرية. أصاب هذا الوعي جميع قطاعات المعرفة، لكن أهم بُعد لهذا الوعي في هذه المرحلة من تاريخ البشرية، انتشار الوعي السياسي بين جميع الشعوب، فلم يبقَ هنالك شعب جاهل وغبي سياسياً، إذ أمّنت ثورة الاتصال المعرفة السياسية مستخدمة شتى الوسائل التقنية المتوفرة. وهذه الثورة مرشحة لأن تساهم في تعميق الوعي السياسي والوجودي والمعرفي العام في السنوات المقبلة.

جاءت هذه الثورة في شكل الاتصالات ومضمونها لتُرسي قواعد حياة انسانية جديدة لم تصبح أبعادها ومعالمها واضحة للجميع. من ثمار هذه الثورة إضعاف الحواجز التي تفصل الناس بعضهم عن بعض ضمن المجتمع القومي الواحد وبين الناس في مختلف المجتمعات القومية الأُخرى. هذا التطور انعكس إيجابياً على الحياة الدولية السياسية والاقتصادية والثقافية. سنتحدث مطولاً عن هذه الانعكاسات في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ومع حصول أكثر من مئة دولة على الاستقلال منذ تأسيس الأمم المتحدة، زاد الطلب على الأسلحة من مختلف الأنواع لتزويد القوات العسكرية وقوى الأمن الداخلي بها حفاظاً على السيادة والاستقلال، فراجت تجارة السلاح على نطاق واسع لم يكن له نظير في الماضي، في وقت شهدت فيه تكنولوجيا انتاج الأسلحة ثورة كبرى، وعاشت الساحة الدولية سباقاً محموماً بين جميع الدول. فتكديس الأسلحة دفاعاً عن الذات تحوَّل في مناسبات عدة الى أداة هجومية عدوانية أدت إلى وقوع اضطراب وخلل في السلام العالمي وبالتالي بالنظام العالمي. إلا أن إبقاء الأسلحة الإستراتيجيّة المتطورة حكراً على عدد قليل من الدول، سهّل للقياديين في النظام العالمي أن يحصروا سلبيات الأسلحة ضمن نطاق معقول من حيث الخطورة على السلام والاستقرار العالميين.

كان للتسلح على نطاق واسع تأثير سلبي آخر على كل مجتمع بمفرده، كون الاكثرية الساحقة من الدول المستقلة حديثاً دولاً متخلفة اقتصادياً وليست منتجة للسلاح، فرصد الأموال لاستيراد السلاح حَرَمَ هذه المجتمعات تخصيص هذه الأموال للتنمية الاقتصادية والتعليمية والصحية. وان تخصيص المبالغ الضخمة وبالعملات الصعبة لشؤون الدفاع هو من أهم الأسباب التي تُؤدي إلى تخلف مجتمعات دول العالم الثالث.

باختصار، الطلب الكبير للحصول على الأسلحة من قبل معظم دول العالم الثالث، ساهم في تعقيد صورة النظام العالمي وأدى إلى عدم الاستقرار. زد على ذلك أن الدولتين العظميين استغلتا وجود الأسلحة بكثرة لتأجيج الصراع على الساحة الدولية خدمة لمصالحهما. وطبعاً إن تخصيص المبالغ الباهظة للتسلح المبرر وغير المبرر، حرم شعوب هذه الدول المتخلّفة أن تلجَ باب التنمية التي هي أساس الاستقلال الحقيقي والعيش الكريم.

وقد حدث تطور آخر هامّ جداً بدأ قبل الحرب الباردة وتعزز معها نتيجة لتكامل العالم وتداخله اقتصادياً وثقافياً وإعلامياً من خلال ثورة الاتصالات التي عمّت تأثيراتها مجالات الاقتصاد والتجارة والمعلومات والمعرفة على اختلاف أنواعها. هذا التطور هو تآكل مفهوم السيادة القومية التي يقوم عليها مفهوم الدولة القومية المعاصرة. فالسيادة بمفهومها العريض شكلت حجر الزاوية للأمة ـ الدولة الحديثة، وبات الدفاع عن هذه السيادة أعلى رموز الولاء والتضحية في هذا الإطار. فباسم الدفاع عن السيادة ومصالح الأمة يُدعى المواطنون لأعلى درجات التضحية، التي تصل حتى درجة الفداء بالنفس.

طبعاً السيادة القومية ما زالت حجر الزاوية لبناء المجتمع القومي، لكن هذه السيادة اهتزت وتضعضعت بحيث بات من الطبيعي أن نجد شريحة كبيرة من مواطني أمة ما تنادي بالولاء والتضحية لكيان أكبر وصلت إلى المناداة بالبشرية هدفاً نهائياً حرياً بالولاء والتضحية بدلاً من شريحة منها مهما اتسعت هذه الشريحة.

ترك تآكل مفهوم السيادة في المجتمعات القومية أثراً في السياسة الداخلية والخارجية وأيضاً في النواحي الثقافية والاجتماعية. فعلى سبيل المثال، لا يُستهجن توجيه النقد واللوم لسجل دولة ما في مجال حقوق الإنسان من طرف خارجي ولا يعتبر ذلك تدخلاً خارجياً في شؤون تلك الدولة الداخلية.

أما أهم ناحية في هذا السياق فهو في أن تآكل مفهوم السيادة القومية أدى إلى انتشار أجواء فكرية تندد بالمفهوم القومي الضيق وتدعو إلى العالمية والسلام العالمي القائم على التعاون والمشاركة بين الأمم عوضاً من التنابذ والنزاع والصراع. هذه الأجواء الفكرية المشبعة بالعالمية آخذة في الاتساع تمشياً مع بروز قضايا ومسائل لا يمكن لمجتمع قومي واحد مواجهتها، وتقتضي أعلى درجات التعاون على مستوى البشرية جمعاء.

حدث تطور اقتصادي بارز في مطلع السبعينات: تكديس مليارات الدولارات من جراء ارتفاع سعر بترول الشرق الأوسط المباع الى دول اوروبا الغربية وأميركا واليابان. تكدست هذه المليارات في خزائن دول قليلة مثل المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية والعراق وإيران وليبيا. مليارات البترودولار سببت الارتباك وأوقعت بلبلة في صفوف الدول الغربية المستوردة فجرى البحث عن طريقة لاستعادة هذه المبالغ الضخمة بصورة لا تكون مرفوضة من الدول المصدرة للبترول. إحدى أهم الوسائل كانت إذكاء الصراع ضمن منطقة الشرق الأوسط، ما أدى إلى سباق نحو التسلح لا مثيل له. كانت ايران السبّاقة في عهد الشاه إلى محاولة لعب دور شرطي الخليج كحليفة للولايات المتحدة. فزودتها الترسانة الاميركية بأحدث المعدات والأسلحة المتطورة، فانتقلت العدوى إلى العراق والسعودية والإمارات العربية، فاضطربت الأجواء ناهيك بالصراع العربي ـ الإسرائيلي المزمن. باختصار، نجح الغرب بصورة خاصة وكتلة الاتحاد السوفياتي بصورة عامة بامتصاص جزء كبير من فائض هذه الأموال. فالذي حدث أنه بدلاً من أن تؤدي هذه الثروة

البترولية الى الاستقرار، ساهمت في خلق جوٍّ متلبد سياسياً انعكس على مجمل وضع منطقة الشرق الأوسط.

كما صرفت مبالغ ضخمة على مشاريع ونشاطات غير مثمرة وغير اقتصادية، ناهيك بالبذخ والترف الأسطوريين اللذين مارسهما مواطنو معظم هذه الدول داخل أوطانهم وخارجها. بنوا القصور الأسطورية وشاركوا في تجارة الرقيق الأبيض واستهلكوا ملايين الدولارات على السلع الكمالية على أنواعها. عملت هذه البحبوحة الاقتصادية على انتشار الكسل والفساد والرشوة والدعارة بشكل هدد نسيج المجتمع.

كما أن جزءاً كبيراً من هذه الثروة استُثمر في مشاريع داخل الدول الغربية بصورة خاصة. أما ناتج هذه المخططات فكان توريط العراق وإيران في حرب دامت ثماني سنوات استنزفت كثيراً من القدرات الاقتصادية لكل منهما ولدول شبه الجزيرة العربية. كما أن حرب ايران ـ العراق مهدت الطريق إلى حرب الخليج التي أتت على ما تبقى من البترودولار والسيادة والاستقرار. أما حصيلة كل هذه «النعمة» الهابطة من السماء فهي التشرذم والدّين والتبعية وإبقاء الدور الأميركي مهيمناً ـ مع الدور الإسرائيلي ـ على ما عداهما من أدوار.

تطور لافت آخر هو الصحوة الدينية في العالم أجمع والعالم العربي ـ الإسلامي خاصة. الصحوة الدينية في أوروبا والغرب استُوعبت في وقت مبكر من نهوضها، لكنها استمرت ضمن أطر المؤسسات الاجتماعية القائمة فلم تُحدث خضة. أما الصحوة الدينية البوذية والهندوسية فلم تترك، اثاراً سياسية نظراً لاستقلالية المفهوم الديني لهاتين الديانتين الرئيسيتين. فقط في اميركا اللاتينية والعالم العربي ـ الإسلامي تركت الصحوة الدينية آثاراً سياسية واجتماعية جمة.

كانت الصحوة الدينية في بلدان اميركا اللاتينية كاثوليكية الهوية واجتماعية المضمون. فلم يكن غريباً أن يكون الكاهن أو المفكر الكاثوليكي يسارياً ماركسياً، فتداخلت الصحوة الدينية بالدعوة الشيوعية والثورة القومية السياسية. إن الصحوة الدينية في اميركا اللاتينية نجحت في

خلق وعي اجتماعي ـ سياسي ساهم في قيام ثورات وانقلابات لم تنته به. الصحوة الدينية الكاثوليكية صحوة أصيلة نابعة من تراث هذه المجتمعات، وهي تتفاعل مع المؤثرات الفكرية والأيديولوجية والسياسية الوافدة من الخارج. وقد أخذت بلدان اميركا اللاتينية اليوم تجني ثمار هذه الصحوة.

تقوم نهضة دينية واسعة تنبع من تعاليم الإسلام على رقعة تمتد من اندونيسيا شرقاً مروراً بالهند وباكستان وإيران وآسيا الوسطى وتشمل العالم العربي برمته حتى مراكش غرباً بما فيها غرب افريقيا ونيجيريا.

بدأت هذه الصحوة الإسلامية خجولة باتصال العالم العربي ـ الإسلامي بادىء ذي بدء مع العالم العربي وما لبثت أن خبت مع انتشار المفهوم القومي وهيمنته. ومع تراجع الدفع القومي العلماني وجدت النهضة الإسلامية نفسها في موقع مؤات لتنافس المفهوم القومي. فالمفهوم السياسي الإسلامي لا قومي ويرتكز على مفهوم الأمة الإسلامية التي تضم جميع المسلمين ويتخطى هذا المفهوم للأمة مفهوم الأمة القومي العلماني.

فالصحوة الإسلامية التي تشهدها الساحة الإسلامية المترامية الأطراف تجابه القومية ودعاتها ورموزها وداعميها في الغرب. إنها ثورة أصيلة نابعة من صميم تعاليم الإسلام وتراثه التاريخي. يحلو لأعدائها أن ينعتوها بالتخلف والسلفية لكنها ثورة أصيلة قامت نتيجة لخضة الاتصال بالعالم الخارجي والتململ الداخلي من فشل التوجه القومي العلماني في الوصول بالمجتمعات العربية ـ الإسلامية إلى شاطىء أمان الاستقرار والبحبوحة والنجاح.

تجد الصحوة الإسلامية نفسها اليوم في خط تصادمي مع تطلعات وسياسات الولايات المتحدة والغرب، لذا، فالغرب يناصبها العداء لأنه لم يستطع احتواءها ولم يتمكن من توجيهها في مسار يتماشى ويخدم مصالحه. ونظراً لسيطرة الغرب على النظام العالمي القائم، كان لا بدَّ من وقوع المواجهات والاضطرابات. فما لم يعترف العالم الغربي ومن ورائه

العالم أجمع بأصالة الصحوة الإسلامية وحقّها في الحياة، فلا بدَّ من أن يستمر عدم الاستقرار في النظام العالمي القائم الذي بدأ مع الحرب الباردة واستمر إلى اليوم.

فالذي يعاني منه العالم العربي ـ الإسلامي، أي فشل العصرنة وفق النموذج الغربي ـ يعاني منه باقي دول العالم الثالث في آسيا، وإفريقيا وأميركا اللاتينية. باتت العصرنة والحداثة هدفاً نهائياً لدول العالم الثالث وشعوبها. فالعصرنة باتت صنواً للتخلص من التخلف والفقر والتبعية. نال معظم دول العالم الثالث الاستقلال السياسي لكنها لم تحصل على الاستقلال الحقيقي. بات الجميع مقتنعين بأن العصرنة هي مفتاح الحياة المستقلة الحرة الكريمة.

نظراً لكون المفهوم الغربي للعصرنة هو الأكثر رواجاً ونظراً لكون الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الطرف الأقوى في الحرب الباردة والنظام العالمي، لذا وجد الغرب نفسه في موقع مناسب لممارسة نفوذ قوي على دول العالم الثالث، ما رجح كفة الكتلة الرأسمالية على الكتلة الاشتراكية. استقطبت العصرنة وفق النموذج الغربي الاهتمام طواعية ودون إكراه، وذلك بسبب الاتصال الذي دام عقوداً بين الدول المُستَعمَرَة والدولِ الغربية المستعمِرة.

جاء النموذج الاشتراكي للعصرنة في معظم الأحيان ثمرة الثورة أو الانقلاب العسكري ففرض فرضاً على بعض المجتمعات. لم يحظَ النموذج الاشتراكي بالاهتمام الطوعي مثل النموذج الغربي للعصرنة. لذا بَقِيَ نفوذه محدوداً على دول وعقول ومشاعر الشعوب الخاضعة لأنظمة اشتراكية. وما انهيار الاتحاد السوفياتي والكتلة السوفياتية سوى دليل على إفلاس النموذج الاشتراكي، وذلك لأنه قام على القوة والإكراه والتوجيه من فوق. لذا مارست الكتلة الاشتراكية نفوذاً ضعيفاً على الساحة الدولية في مجال العصرنة، وقد كان النفوذ السياسي الذي مارسته هذه الكتلة نابعاً من قوة الاتحاد السوفياتي العسكرية وليس من

الاقتناع بأن الاشتراكية كما مارسها الاتحاد السوفياتي تشكل الطريقة الفُضلى للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

هنالك نماذج أخرى للعصرنة طرحت على الساحة منها النموذج الصيني والافريقي والأميركي اللاتيني. لكن هذه النماذج ما هي سوى تنوعات على النغمين الرأسمالي والاشتراكي وليست نماذج أصيلة يمكن أن تنافس هذين النموذجين. فقط النموذج الإسلامي، الذي انبثق من الثورة الاسلامية في إيران ولاقى صدى في كثير من المجتمعات الإسلامية، يتمتع بالإصالة. إنه نابع من صميم الإسلام الذي يتفاعل مع العصرنة دون الغربنة والذي استهوى المسلمين في كل مكان. مع أن انتشار هذا النموذج ما زال محدوداً، إلا أنه مرشح لأن يسود في كل المجتمعات الإسلامية مع مرور الزمن.

إن عداء الغرب للنموذج الإسلامي الذي يصطدم بالنموذج الغربي الذي ساد ردحاً طويلاً من الزمن على الساحة الإسلامية، ينبىء بمواجهات حامية مع الغرب الثقافي في المستقبل. لكن حتى ولو نجح النموذج الإسلامي في ربح الصراع الثقافي على الساحة الإسلامية كافة، إلا أن نفوذه سيقتصر على الساحة الإسلامية لوحدها نظراً لأن أبعاد النموذج الإسلامي الحياتية والثقافية اسلامية بحتة وليست انسانية شاملة كل البشرية.

السعي للعصرنة له تأثير على مجمل نواحي الحياة: المحلية والإقليمية والدولية، والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، لذا يشكل بُعداً أساسياً في أي نظام عالمي. وما السياسات التي اتبعتها الدولتان العظميان في تعاطيهما مع العالم الثالث إلا انعكاسات للصراع الداخلي والخارجي الذي ولده السعي إلى العصرنة.

تطور لافت آخر في هذه الحقبة هو سعي الإنسان لاستكشاف أسرار الفضاء. وكانت دائماً ما يحيط بالأرض من أجرام سماوية وأثرها في مجريات الحياة الأرضية هاجساً يقضّ مضجع الإنسان. فالتنجيم أدى إلى قيام علم الفلك الذي كان له جولات رئيسية في النهضة العلمية التي

بدأت مع مطلع القرن السادس عشر. علم الفلك بمفرده لم يسمح لسكان الأرض أن يرتادوا الفضاء، بل ترك الأمر إلى مرحلة اختراع الصواريخ وعلوم أخرى ساهمت في إتاحة الفرصة أمام الإنسان للسفر خارج نطاق جاذبية الأرض. فجرى الهبوط على سطح القمر وإرسال سفن فضائية إلى المريخ والأجرام الأخرى.

لكن استكشاف الفضاء تزامن مع تطوير أسلحة الدمار الشامل الذرية والكيميائية والبيولوجية ووسائل إيصالها الى مسافات شاسعة. في هذه المرحلة برزت فكرة «حرب النجوم» المؤدية إلى تفجير الصواريخ البعيدة المدى في الفضاء قبل وصولها إلى أهدافها، وقد ضاعفت الرعب في القلوب لخطورتها وكلفتها الباهظة. ساهمت آثار حرب الصواريخ الحربية والإنسانية والاقتصادية في تعجيل رأب الصدع بين الدولتين العظميين والتوفير على البشرية عبء سباق تسلحٍ رهيبٍ يؤدي إلى اضطراب في الاستقرار والسلام العالميين وعيش العالم على شفير الهاوية.

تطوران آخران بارزان حدثا في مرحلة ما بين بداية الحرب الباردة ونهايتها. هذان التطوران هما التفجر السكاني واتساع رقعة التلوث على أنواعه في أصقاع الأرض كافة.

التفجر السكاني الذي طاول المجتمعات الفقيرة والمتخلفة في العالم الثالث زاد من مآسي العوز والمرض والجهل في هذه المجتمعات، ما أثَّر في الوضع الإنساني عامة، إذ لا تستطيع المجتمعات الأخرى أن تتجاهل هذا الوضع المأسوي. فللتفجر السكاني أبعادٌ اقتصادية وسياسية وايكولوجية خطيرة يمكن أن تزعزع النظام العالمي، وقد زادت حدة هذا التطور نتيجة الأجواء السائدة خلال الحرب الباردة. فزيادة السكان غير المدروسة تؤدي إلى النزاعات الاقليمية وإلى نفاد الموارد الأرضية الرئيسية، كما تعمل على ارتفاع نسبة البطالة والهجرة إلى المجتمعات الأكثر رخاء والأقل عدداً من ناحية السكان. بات التفجر السكاني الحاصل في هذه المرحلة يهدد الاستقرار العالمي.

أما التلوث الشامل فأثر سلباً في نوعية الحياة الإنسانية، ما يهدد بزيادة الأمراض على أنواعها. لكن يمكن أن يكون التلوث «إيجابياً». فنظراً لأن التلوث يصيب المجتمعات كافة على اختلافها، وان مواجهة هذه المشكلة تتطلب عملاً مشتركاً من الجميع، يُؤَمَلُ أن يقوم تعاون بين جميع الدول وخاصة المتطورة منها، يُقرِّب الدول بعضها الى البعض. هذا التعاون لمكافحة التلوث ربما ساهم في قيام تعاون أوسع في المجالات الاقتصادية وقضايا الحرب والسلم. إن التعاون لا بدَّ آتٍ لأن اهمال مشكلة التلوث يعني تدني نوعية الحياة في جميع المجتمعات والموت البطيء للجنس البشري على المدى الطويل.

خلال الفترة الممتدة ما بين ١٩٤٥ و١٩٩٠، خطت العلوم الانسانية مثل الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس خطوات كبرى نحو فهم القوى التي تحرك المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية للجماعات والأفراد. هذه المعلومات المتوافرة عن دراسة الحركة الاقتصادية والتطور الاجتماعي والنزعات الفردية، وضعت في يد القادة السياسيين سلاحاً يهدد الحرية وخصوصية الأفراد إذا أُسيء استعمالها أو كانت للهيمنة على مقدرات الجماعات والأفراد، ما يُؤثر سلباً في النظام العالمي والاستقرار الدولي.

بجانب ندرة الموارد الطبيعية بصورة عامة، ظهر تطور جديد وهو قرب نفاد البترول نسبياً كمصدر رئيسي ولسبب آخر جرى البحث عن مصدر بديل للبترول كونه مصدر طاقة مُلَوِث للغاية. ونظراً لأهمية الطاقة في الحضارة الصناعية الحديثة، فإن المنافسة للحصول على البترول قبل أن ينفد قوية، بحيث بات مصدر قوة سياسية هائلة. مهما يكن الأمر، ان السعي لاكتشاف مصدر أو مصادر بديلة أدى إلى سباق علمي وتكنولوجي فكانت من البدائل الطاقة الشمسية والطاقة الذرية والطاقة الناتجة عن الرياح والكهرباء... الخ.

ان صعوبة أو عدم ملاءمة استعمال هذه البدائل للطاقة يحتّمان قيام تعاون على نطاق واسع يسمح بتجميع الجهود وتكثيفها بشكل يؤدي

للوصول الى بديل أو بدائل رخيصة وغير ملوثة. هذا التعاون يفترض تخطي الأبعاد القومية الفاصلة بين المجتمعات والشعوب والدول، الأمر الذي سينعكس إيجاباً على النظام السياسي العالمي. إن الحرب الباردة حالت دون تكثيف الجهود في هذا الاتجاه ونأمل أن تكون مرحلة ما بعد الحرب الباردة مؤاتية لقيام مثل هذا التعاون.

إن الكومبيوتر آلة غزت جميع الدول من دون استثناء، وانتشارها واسع رغم التباين بين مجتمع وآخر. إن انتشار الكومبيرتر الواسع وسهولة استخدامه وتنوع خصائصه ترك أثراً دولياً قل نظيره لحل المشكلات على اختلاف أنواعها وتحليلها. وربط الكومبيرتر، كما التلفون والفاكس والتلفزيون والإنترنت، المجتمعات بعضها ببعض، وبات الأفراد العاديون وغير العاديين من خلاله على اتصال دائم بعضهم ببعض.

كما سهل الكومبيوتر الحصول على مختلف المعلومات من دون عرقلة وبسهولة مطلقة وبكلفة زهيدة. خلق الكومبيوتر ثورة في المعلوماتية الدولية تخطت كل الحواجز التي وضعتها السياسة القومية، ما مهد الطريق لزوال الحرب الباردة وكل معضلة تحول دون الاتصال والتواصل بين الأفراد والشعوب. هذه الثورة حتَّمت قيام نظرة جديدة للحياة الدولية التي ستؤدي حتماً إلى نظام عالمي جديد يتخطى الحدود كافة. الكومبيوتر جزء من ثورة الاتصالات الراهنة التي جعلت من الكرة الأرضية «قرية كونية».

وقد ساهم في تسهيل ثورة الكومبيوتر اعتماد اللغة الانكليزية كلغة عالمية Lingua Franca يستخدمها الجميع في وسائل الاتصال كافة خاصة في الكومبيوتر ووسائل الاعلام. وخير دليل على ذلك شبكة الإنترنت وسواها من الشبكات التي توفر المعرفة في شتى الحقول باللغة الانكليزية. إن استخدام اللغة الانكليزية عالمياً يضع لبنة جديدة في بنيان صرح نظام عالمي جديد يعتمد الانفتاح الكامل في جميع المجالات.

ومن المفارقات الغريبة ان تطوراً سلبياً ترك أثره على مجمل النظام العالمي القائم خلال الحرب الباردة. فمكافحة تجارة المخدرات التي باتت

تشكل ركناً هاماً في سياسة الولايات المتحدة الأميركية، ساهمت في تحطيم الحواجز القومية السياسية. ففي محاولة لإبعاد خطر المخدرات عن المجتمع الأميركي، وهو أكبر مستورد لها، وجدت الحكومة الأميركية نفسها، تدعمها دول قوية أخرى، بالإضافة إلى منظمة الأمم المتحدة، مضطرة للتدخل في شؤون الشعوب الأخرى دفاعاً عن صحة بنيها وسلامتهم النفسية والعقلية. هذا التدخل لم يلقَ معارضة تذكر على الساحة الدولية. طبعاً إن الجميع يشاركون الشعب الأميركي في أن المخدرات آفة تعاني منها الشعوب كافة وإن على درجات متفاوتة من الحدة. إن تغاضي الأمم عن الخطر السياسي لهذا التدخل يساهم، من حيث لا يدري الآخرون، أن تعاوناً على هذا الصعيد يعمل لصالح نظام عالمي يتخطى الحواجز كافة التي تفرضها السياسات القومية.

أما حصيلة هذه الأجواء والتطورات السياسية وغير السياسية، فهي زيادة التكامل والتداخل في شتى مجالات الحياة الدولية وتجاوب الأفراد والجماعات في الوحدات القومية كافة مع نتائج هذه الطروحات. إنها تبشر ببزوغ فجر جديد لحياة دولية قائمة على التعاون والتكامل بدلاً من النزاع والتنابذ. فجر يحمل في طياته بذور نظام عالمي جديد لم تعرف الإنسانية مثيلاً له. فالعولمة globalization التي يعيشها عالم ما بعد الحرب الباردة تحمل في طياتها بشائر الإنسان العالمي.

لكن قبل التحدث عن فجر الإنسان العالمي، علينا أن نراجع الأحداث القائمة ما بين نهاية الحرب الباردة والوقت الراهن.

الفصل الخامس

النظام العالمي بعد الحرب الباردة

١ ـ تمهيد

إن مرحلة ما بعد الحرب الباردة الممتدة من العام ١٩٩٠ حتى العام ٢٠٠٠ والمرشحة لأن تستمر فترة طويلة، هي مرحلة انتقالية بالنسبة للترتيبات الحاصلة على الساحة الدولية. هي مرحلة انتقالية لأن «النظام العالمي الجديد» الذي أعلن قيامه رئيس الولايات المتحدة جورج بوش، في آخر ولايته، ليس هو بالنظام العالمي ولا هو بالجديد. إنه ليس نظاماً عالمياً لأن النظام العالمي الأصيل يفترض وجود أكثر من لاعب فاعل على الساحة الدولية، بينما ما هو حاصل هو هيمنة دولة واحدة، الولايات المتحدة الأميركية، على مقدرات العالم أجمع وقراراته الرئيسية. وليس هو بالجديد لأن التاريخ حافل بالأمثلة حيث فرضت قوة واحدة رأيها على اللاعبين الآخرين الأقل قوة. هذا الوضع لا يمكن أن يبقى هكذا الى الأبد ولا بدّ أنه سيتغير مهما طال الزمن. إن الوضع القائم حالياً هو أقرب إلى السلام الأميركي Pax Americana منه الى نظام عالمي أصيل.

إن الساحة الدولية تعيش حالة فراغ سياسي رهيب، لكنها صامتة لأنه لا توجد دولة واحدة أو كتلة دول قادرة على إقامة التوازن مع الولايات المتحدة والانسجام الضروري والمطلوب. نحن لا نقول بالعودة الى الحالة التي كانت قائمة في الحرب الباردة. نحن مع التوازن والانسجام على الساحة الدولية بحيث يصبح كل فريق في النظام العالمي رقيباً على

قرارات الفريق الآخر وأفعاله، بحيث تأتي هذه القرارات والأفعال أكثر انسجاماً مع منطق العدالة الدولية. مهما يكن أمر النظام العالمي من حيث الانسجام والتوازن، يبقى بعيداً عن النموذج المثالي الممثل بالحكومة العالمية. إذا كان هذا وضع أي نظام، فكيف يكون وضع الساحة الدولية في غياب نظام عالمي أصيل وهيمنة دولة واحدة على القرار الدولي؟!.

مع نهاية الحرب الباردة، تبدلت الأدوار فأصبحت روسيا دولة من الدرجة الثانية وأصبحت الولايات المتحدة، الدولة العظمى، «سوبر» قوة. رغم تبدل الأدوار، تبقى هنالك استمرارية في الحياة السياسية الدولية. فروسيا تحاول أن تستجمع قوتها على أسس اقتصادية وسياسية جديدة مع المحافظة على ترسانتها النووية. والولايات المتحدة التي وجدت نفسها بمفردها على الساحة الدولية تحاول أن تتمتع قراراتها بالشرعية الدولية، وخير مثال على ذلك حرب الخليج التي حدثت في المرحلة التي فصلت نهاية الحرب الباردة عن المرحلة الحالية. اوروبا الساعية للتوحد تتابع الخطوات العملية لتحقيق الوحدة الكاملة. ان الصين أيضاً تتابع سياسات الانفتاح الاقتصادي على العالم. إن دول العالم الثالث ما زالت تعاني التخلف والعنف رغم كل المحاولات الجارية للانطلاق نحو التنمية الشاملة.

وقد غيرت نهاية الحرب الباردة الكثير، لكن لم يكن على العالم أن ينطلق من جديد مثل ما حصل بعد الحرب العالمية الثانية. وكرست متابعة السياسات الاقتصادية والسياسية في معظم أقسام الكرة الأرضية الاستمرارية في الشؤون العامة على الساحة الدولية بعد رفع كابوس توازن الرعب عن كاهل البشرية. هذه الاستمرارية تشير الى متابعة التطورات الاقتصادية والسياسية والتكنولوجية والاجتماعية والثقافية التي بدأت في مرحلة الحرب الباردة. صحيح أن خصائص الوضع العالمي قد تعدلت كثيراً، إلا أن أساس هذه الخصائص ما زال قائماً.

جُلُّ ما يجدر ان يعيه المراقب للساحة الدولية أن المرحلة الحالية حبلى بمختلف الإمكانات لما سيكون عليه الوضع الدولي ولما سيكون عليه

النظام العالمي القادم. فالعالم يعيش مرحلة فراغ سياسي رهيب نتج عن زوال الاتحاد السوفياتي المفاجىء كطرف في النظام العالمي الذي دام ٤٥ عاماً، والذي لم تملأه الولايات المتحدة أو دولة أو منظمة أخرى بصورة كاملة.

٢ ـ خصائص المرحلة الراهنة

تتميز المرحلة الراهنة من الحياة السياسية الدولية بكون «النظام العالمي» القائم، كما ذكرنا سابقاً، آحادي التركيب والتكوين، ولا توجد قوة حقيقية منافسة للولايات المتحدة في الوقت الراهن، كما أثبتت الأحداث في أكثر من مناسبة. وهذه الحالة مرشحة للاستمرار طالما أن الولايات المتحدة تحتكر القرار الدولي بمفردها، وطالما أنه لا توجد قوة منافسة تشاركها القرار أو تنتزعه منها. كما أسلفنا، فإن الوضع الراهن لا يمثل نظاماً عالمياً بل هيمنة قوة واحدة على مقدرات العالم وقراراته، وإن هذا الوضع يخالف «قوانين» الحياة السياسية الدولية وبالتالي يجب تعديله لكي يكون «طبيعياً».

والسؤال المطروح اذاً: إلى متى سيستمر هذا الوضع الشاذ؟ في نظرنا أن هذا الوضع مرشح للاستمرار إلى زمن طويل، وذلك لسببين رئيسيين: الأول، كون القوة والنفوذ الأميركيين لا يشكوان من التآكل بصورة مطلقة. فالقوة الأميركية العسكرية تتعزز يوماً بعد يوم، وبالتالي نفوذها السياسي يتضاعف عوضاً من أن يتراجع. والقوة الاقتصادية التي تراجعت بصورة مطلقة ونسبية تبقى قادرة، رغم كل السلبيات، على دعم الدورين العسكري والسياسي. كما وأن الثقل الثقافي والإعلامي الذي تتمتع به الولايات المتحدة يزيد من قوتها ونفوذها على جميع الأصعدة. اذاً، فالولايات المتحدة ليست معرَّضة لخطر «الزوال» عن زعامة الخريطة الدولية.

والثاني، يكمن في أنه لا يوجد سوى «حديدان» على الساحة الدولية. فجميع القوى المرشحة لمشاركة الولايات المتحدة قوتها ونفوذها أو منافستها، لا تملك مقومات الزعامة الدولية كافة. فالإتحاد الأوروبي

تنقصه الإرادة وإجماع الرأي ويعاني من الضعف الداخلي. واليابان يعوزها البعدان العسكري والسياسي مع أنها باتت عملاقاً اقتصادياً. والصين تعوزها كل مقومات الزعامة الدولية برغم انفتاحها على العالم وعدد سكانها الذي يناهز المليار ومئتي مليون نسمة. وروسيا وحلفاؤها الجدد CIS تمر بمرحلة انتقالية ربما دامت سنوات، وهي ليست مؤهلة للعب دور جديد فعّال لسنوات طويلة طالما ان ارادتها الاقتصادية مشلولة وأهدافها السياسية مصادرة ،وقد أثبتت الأحداث ان القوة النووية الضاربة بمفردها غير كافية لأن تمكّن دولة من احتلال مركز الصدارة الدولية.

بناءً عليه، ستستمر الولايات المتحدة في احتكار زعامة العالم طالما أنها تستطيع المحافظة على عناصر قوتها بشكل مطلق، وطالما أنه لاتوجد قوة واحدة أخرى يمكن أن تنازعها هذا الدور وأن تنافسها عليه. وربما استمر هذا الوضع لسنوات طويلة.

من أكثر الخصائص وضوحاً العائدة للمرحلة الراهنة، متابعة النموذج الغربي في العالم للعب دورٍ فعّال في حياة شعوب العالم الثالث. فاقتصاد السوق الرأسمالي والديمقراطية والحرية، ثالوث النموذج الغربي، تتابع مسيرتها في تحريك الشعوب والأمم الطامحة نحو التطور والتقدم والرخاء والبحبوحة. فروسيا نزعت العباءة الاشتراكية وانخرطت كلياً في المجال الليبرالي، وكذلك فعلت الجمهوريات السوفياتية السابقة ودول اوروبا التي كانت تشكل الكتلة السوفياتية. فقد لاقت هذه المجموعة من الدول درجات متفاوتة من النجاح في التخلص من الإرث الاشتراكي الشيوعي لكنها ماضية في مسيرتها دون توانٍ أو تردد.

أما الصين فقد خطت خطوات كبيرة في التخلي عن الاقتصاد الموجَّه ونجحت في تحقيق وثبة واسعة في التنمية الاقتصادية وفق النموذج الرأسمالي الغربي. لكن التحرر الاقتصادي في الصين لم يرافقه تحرر سياسي فبقي الحكم سلطوياً جائراً. ويبقى السؤال مطروحاً إلى أي مدى ستستطيع الصين الحفاظ على نظام حكم استبدادي في ظل انفتاح

وتحرر اقتصادي؟ الإجابة عن هذا السؤال مرتبطة بالخطوات التي ستتخذها القيادة الصينية في مرحلة ما بعد دنغ زياوبنغ؟ لا شك أن مستقبل الصين على الساحة الدولية مرهون الى درجة كبيرة بقدرة القيادة الصينية الحالية على الانتقال الى ضفة التحرر والانفتاح السياسي بعد أن قطعت أشواطاً كبيرة على صعيد التحرر والانفتاح الاقتصادي.

إن النموذج الاشتراكي الكامل ما زال قائماً في ثلاث دول هي كوريا الشمالية وفيتنام وكوبا. هذه الدول تعاني من التخلف والضائقة الاقتصادية والمعيشية بالإضافة إلى حكم تعسفي جائر. بقايا الاشتراكية الشيوعية تتعرض لضغوطات داخلية وخارجية تحاول التأثير عليها لتغيير مسيرتها.

دول العالم الثالث لا تجد أمامها، بعد سقوط النموذج الاشتراكي، سوى النموذج الغربي تتمثله. جميعها تسير في ركب هذا النموذج من دون تردد، ما يقوي زخم نفوذ الغرب الاقتصادي والسياسي والثقافي. فقط بعض بلدان المجموعة الإسلامية تحاول أن تبرز نموذجاً مختلفاً عن النموذج الغربي. فالنموذج الإسلامي وَجَدَ تعبيراً قوياً في ايران وتحاول بعض الدول الاسلامية الأخرى أن تتبنى هذا النموذج. لكن النموذج الإسلامي يعاني من معارضة داخلية قوية وعداء سافر من الغرب. فقواعد النموذج الغربي في داخل البلدان الإسلامية متينة لأنه قديم التأثير، بينما النموذج الإسلامي ما زال طري العود وحديث العهد. زد على ذلك ان الغرب يُعادي النموذج الإسلامي ويمارس لإحباطه جميع الضغوطات بالوسائل التي يمتلكها كافة، وهي كثيرة.

باختصار، يتمتع النموذج الغربي في الحياة بإمكانات تضمن نجاحه على الساحة الدولية ويمتلك شتى الأسلحة المؤثرة لإحباط أي نموذج جديد يتعارض وتوجهاته. وبعد غروب شمس النموذج الاشتراكي، يبقى النموذج الإسلامي شوكة في جانب الغرب الذي يحاول احتواءه وبالتالي إحباطه.

خاصة أخرى من خصائص الوضع الراهن هي هدوء الساحة الدولية

نسبياً على مستوى المنافسة الدولية. ان سقوط الاتحاد السوفياتي وانهيار النظام العالمي الذي كان قائماً خلال الحرب الباردة سحبا ورقة مساومة قوية من يد دول العالم الثالث. سحبا ورقة لعب إحدى الدولتين العظميين ضد الدولة الأخرى. مع تحول الوضع الراهن الى نظام آحادي القطبية خسرت دول العالم امكانية تحريض دولة ضد أخرى. هذا الوضع أزال عن الساحة الدولية بؤر عدم الاستقرار والمنافسة. ونتيجة لذلك تنعم الساحة الدولية اليوم باستقرار نسبي، فالولايات المتحدة باتت الحَكم الوحيد ولا منافس لها في الوقت الراهن.

هذا طبعاً لا يعني أن المرجعية الاميركية في التعاطي مع الشؤون الدولية مرجعية عادلة ومنزَّهة. بل العكس هو الصحيح. فالولايات المتحدة تعمل بوحيٍ من مصالحها وقناعاتها الخاصة وليست تعمل بوحي ما هو عادل وصائب. وخير مثال على ذلك دورها في عملية السلام في الشرق الأوسط. فالمأزق الذي تجد عملية السلام نفسها فيه، مصدره السياسة الأميركية المنحازة لإسرائيل والتي تخدم مصلحة الولايات المتحدة سياسياً واستراتيجياً واقتصادياً. كما ان موقف الولايات المتحدة من قرارات الأمم المتحدة حول قضية فلسطين تظهر التباين الفاضح بين ما هو عادل وبين ما هو انحياز لطرف ضد طرف آخر.

لم تلعب طاقة في الماضي ما يلعبه البترول في الوقت الراهن في مصير الحضارة الصناعية. لا نغالي إذا قلنا إن مَنْ يتحكم بمصادر البترول يمكنه أن يتحكَّم بمصير العالم المعاصر. ومن المفارقات أن الدول المصدّرة لهذه المادة ليست دولاً صناعية متطورة، بينما الدول المتطورة لا تملك سوى جزء بسيط من حاجتها الى الطاقة، وخاصة البترول. لذا، فمن أولويات سياسة هذه الدول أن تضمن وصول البترول الى أسواقها من دون معوقات وبأسعار معقولة. ونظراً لأن الدول المنتجة والمصدرة للبترول هي من دول العالم الثالث ومعرَّضة لعدم الاستقرار، تركز اهتمام الولايات المتحدة والغرب على بقاء الدول المصدرة خارج نطاق التقلبات السياسية، وبالتالي عملت على إبقاء سيطرتها على مصادر البترول.

فالحرب العربية - الإسرائيلية عام ١٩٧٣ وقعت في أجواء وقف ضخ البترول الى اوروبا الذي ترتبت عنهُ مضاعفة سعر البترول مرات عدّة، وبالتالي الى اغتيال الملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية، الذي قاد حملة المقاطعة. لكن لم يستقر الوضع حتى ضمنت دول الغرب استمرار التدفق النفطي بأسعار منخفضة.

وقد وقعت حرب الخليج عام ١٩٩١ لأن الغرب رأى في احتلال العراق للكويت تهديداً لمصالحه البترولية ولم يقرَّ له قرار حتى أحكم سيطرته على أكبر منطقة منتجة للبترول - الخليج العربي - في العالم وبعد أن ضَمَنَ عودة رؤوس الأموال الفائضة من ارتفاع أسعار البترول. هذا يدل على بقاء البترول لاعباً رئيسياً على الساحة الدولية وأن الغرب المهيمن بزعامة الولايات المتحدة - على النظام العالمي سيبقي على ممارساته الضامنة لاستقرار الوضع العالمي خدمة لمآربه الاقتصادية والسياسية المتمثلة بتدفق البترول.

ونحن في سياق الحديث عن حرب الخليج، لا بد من الإشارة الى أن هذه الحرب وقعت مباشرةً بعد غياب الاتحاد السوفياتي لأول مرة منذ ١٩٤٥ عن اتخاذ موقف معارض لتوجهات الولايات المتحدة والغرب في ظل أزمة رئيسية. ونجزم في هذا السياق ان حرب الخليج لم تكن لتندلع في ظل الحرب الباردة. حرب الخليج وحرب العراق - ايران كانتا آخر حلقتين من حلقات إحكام السيطرة من قبل الغرب على مصادر البترول. لكن رغم الهيمنة الغربية في هذا الصدد يبقى للدول المصدرة للبترول - اوبيك - دور رئيسيٌ تلعبه على الساحة الدولية، مع ما يسببه من انعكاس على النظام العالمي.

هناك لاعب رئيسي - الحلف الأطلسي - لعب دوراً مميزاً في الدفاع عن اوروبا الغربية خلال الحرب الباردة ظهر بحُلة جديدة تؤهله للقيام بمسؤوليات جسام خارج اوروبا الغربية وخارج اوروبا بأكملها. فهو يأمل أن يضم جميع دول اوروبا الشرقية دون إغاظة روسيا، ويعمل على لعب دورٍ جديدٍ يتخطى المجال الأوروبي بأكمله. يجب أن نبقي أنظارنا

مشدودة نحو هذا الحلف الذي تأمل الولايات المتحدة من خلاله أن تبقي اوروبا في بيت الطاعة داعمة لسياسة الولايات المتحدة في العالم. إن بقاء الحلف الأطلسي فعّالاً مرهون بالتطورات الجارية في اوروبا على صعيد إنجاز الاتحاد.

ارتبطت قضايا الحرب والسلام في العالم بعد الحرب الباردة ارتباطاً وثيقاً بالتقارب الحاصل بين الولايات المتحدة وروسيا وإبقاء الدور العالمي للولايات المتحدة وانكماش الدور الروسي. قضايا عدة وجدت لها حلاً سريعاً مباشرة بعد نهاية الحرب الباردة، منها: نهاية الحرب الأهلية اللبنانية، تراجع القتال في أنغولا وحل قضية التمييز العنصري في جنوب افريقيا وفرض الحل في كوسوفو. كما شهدت الساحة الدولية سقوط أنظمة يسارية أو شيوعية، مثل ما حدث في اثيوبيا وجنوب اليمن. وحدها الدول العريقة بالشيوعية حافظت على أنظمتها، مثل كوبا وفيتنام وكوريا الشمالية والصين. لكن هذه الدول، بسبب سحب الدعم السياسي والاقتصادي من قبل الاتحاد السوفياتي، باتت تحاول التفتيش عن مخرج يحفظ ماء الوجه.

إحدى خصائص المرحلة لما بعد الحرب الباردة تتمحور حول اندلاع الحروب الأهلية واتساعها. فالحروب الاقليمية تراجعت وبرزت الحروب الداخلية بقوة في أكثر من موقع، مثل حرب الشيشان، حروب يوغسلافيا، سيري لانكا، ليبيريا، سيراليون، الكونغو الديمقراطية، واستمرار الحرب في شمال ايرلندا حتى وقت قصير مضى، والحرب الأهلية الجزائرية، الحرب الافغانية... الخ.

وفي سياق الحديث عن تراجع الحروب الاقليمية: حدوث تقدم في عملية السلام في الشرق الأوسط ومحاولة إيجاد مخرج لائق للقضية المزمنة بين الهند وباكستان ـ كشمير. ولأول مرة منذ زمن طويل تمت محادثات مباشرة عام ١٩٩٧ بين الدولتين المتنازعتين حول مقاطعة كشمير، والتي يتوقع ان تدخل حيز الضوء الأخضر في المستقبل القريب رغم المناوشات الأخيرة. أما قضية الشرق الأوسط فقد دخلت مرحلة

جديدة باستئناف المفاوضات بين الفلسطينيين والسوريين من جهة وإسرائيل من جهة ثانية.

ومن أهم مظاهر مرحلة ما بعد الحرب الباردة، محاولة روسيا التعاون مع الجمهوريات التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفياتي. ان اتحاد الدول المستقلة Commonwealth of Independent States يشكل نواة تحالف جديد قائم على أساس الاعتراف بخصوصية كل جمهورية، بينما تلعب روسيا دوراً مميزاً بين هذه الدول.

خلال الحرب الباردة، لم تلعب المنظمات الاقليمية دوراً بارزاً على الساحة الدولية. فالدولتان العظميان طغتا على كل ما عداهما من قوى. فمع زوال كابوس الحرب الباردة، تنفست هذه المنظمات الصعداء وأخذت تمارس نشاطاً ملحوظاً. فالجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية ومنظمة الدول الاميركية ومنظمة جنوب شرق آسيا ASEAN تعمل الآن بنشاط لم يكن ملحوظاً في السابق. وهذه المنظمات مرشحة لكي تلعب دوراً قوياً على الساحة الدولية.

تميّزت مرحلة ما بعد الحرب الباردة بتبدل جذري في طبيعة النظام العالمي يُبشّر بظهور بوادر توجهات جديدة للوضع الدولي والنظام العالمي.

٣ ـ توجهات جديدة على الساحة الدولية

إن الحديث عن النظام العالمي في مرحلة ما بعد الحرب الباردة يقودنا الى استشفاف بوادر توجهات جديدة كانت هاجعة قبل ذلك.

التوجه الأول، بروز دور أقوى للأمم المتحدة لما تمثله من شرعية دولية ومبادىء وقيم. إن منظمة الأمم المتحدة التي لم تتمكن من فرض هيبة الشرعية الدولية حتى ١٩٩٠، باتت اليوم محور العمل السياسي الدولي بالرغم من الهيمنة الاميركية. حتى اميركا نفسها لم تكن لتستطيع خوض حرب الخليج عام ١٩٩١ بالنجاح والتأييد الذي حققته لولا المظلة الواقية التي بسطتها الأمم المتحدة فوق رأسها. كذلك لم تتوقف حرب كوسوفو لولا الغطاء الدولي الذي وفره مجلس الأمن في اللحظة الأخيرة.

وقد برز الدور الجديد للمنظمة الدولية أكثر من ذي قبل في أعمال المنظمات غير السياسية التابعة للأمم المتحدة. فبرنامج التمية الذي ترعاه الأمم المتحدة لاقى استحساناً خاصاً في الدول النامية ودعم الدول الغنية. والمنظمات الأخرى في مجالات الثقافة والصحة والعمالة... الخ تعمل بقوة منقطعة النظير. لكن يبقى الدور السياسي للجمعية العامة ومجلس الأمن محور الاهتمام بهيئة الأمم، نظراً لبُعد تأثيره على شتى نشاطات هذه المنظمة، وهذا مرشح للتقدم بخطوات ثابتة.

التوجه الثاني ينبع من الطبيعة الكونية Globalism للتفكير والسلوك السياسيين. فالبُعد الكوني للحياة الدولية يتمحور حول قيام عالمية برغماتية نابعة من التطور الحقيقي للوضع الدولي وليس نابعاً من عقيدة مغلقة. فالماركسية كانت كونية التوجه لكن حصرها في عقيدة غير مرنة أدى إلى سقوطها. فلا الصراع الطبقي ولا اللحمة العمالية أديّا إلى عالمية حقيقية لأنهما جاءَا مخالفين للواقع الذي تعيشه الشعوب. ان التوجه العالمي الذي تشهده الساحة الدولية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة ينبع من خصوصيات المجتمعات التي تتواصل وتتكامل بعضها مع بعض بصورة طبيعية تدريجية وبدون تشنج ثوري. هذا التوجه، العولمة سنتحدث عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

من هذا المنطلق، يجب أن نأخذ العبرة من مرحلة الحرب الباردة وإفرازاتها. فالحرب الباردة أرست قواعد نظام عالمي واضح المعالم لكنه مخيف، لأنه يهدد البشرية بالفناء. فالماركسية ـ اللينينية أدت الى إفلاس شريحة كبيرة من البشرية لكنها كانت قادرة على إفناء البشرية. ولحسن الحظ، لم يحصل ذلك. فالماركسية ـ اللينينية كطريقة حياة ونظرة الى الكون والإنسان أعلنت إفلاسها ـ كما ان الديمقراطية الغربية القائمة على المفهوم القومي، والتي نجحت في هزم الماركسية ـ اللينينية، لم تنجح في إرساء نظام عالمي عادل. في نظرنا، إن الفراغ الفكري الوجودي الذي تشكو منه الساحة الدولية في هذه المرحلة ينادينا كي نلج بوابة الخلاص القائمة على مفاهيم وقيم ومبادىء تختلف كل الاختلاف عن سابقاتها.

فالخلاص يأتي مع قيام نظام عالمي يختلف جملة وتفصيلاً عما أتى سابقاً.

التوجه الثالث والأخير: يتمحور حول نبذ التفكير والسلوك القوميين اللذين كانا وراء المصائب التي حلت بالبشرية منذ القرن السادس عشر وحتى اليوم. فالتفكير القومي الطبيعي أمر مرغوب فيه، لكن التعصب القومي او الشوفينية فهما شر مطلق. فالنظام العالمي المنشود يجب ان يقبل شعور الانتماء القومي كشعور مُعبر عن الانتماء الى الجماعة، وهو أمر طبيعي ومحمود ويرفض الشوفينية لأنها تعزل الوحدات القومية بعضها عن بعض، لأن المطلوب قيام نظام عالمي قائم ليس على الإنسان القومي بل الإنسان العالمي، نظام يؤدي الى العدالة الدولية.

الجزء الثاني

الإنسان العالمي والنظام العالمي العادل

الفصل السادس

عالم متداخل ومتكامل

١ ـ تمهيد

عالم اليوم عالم متداخل ومندمج ومتكامل ولا مكان فيه للعزلة والانطواء على الذات. هذان التداخل والتكامل جاءا حصيلة تطورات في طبيعة النشاط الاقتصادي والتجاري الذي رافق عصر الاكتشافات. فالنشاط الاقتصادي الذي كان محصوراً في رقعة جغرافية ضيقة بات يغطي مناطق شاسعة من الكرة الأرضية وما لبث أن شمل الكرة الأرضية بمجملها. فالنشاط الاقتصادي والتجاري حالياً يتخطى كل الحدود والحواجز ويغطي القطاعات والبلدان كافة. وهذا التطور أكدّ على حقيقة أساسية هي أن الترابط الاقتصادي والتجاري حال دون قيام بلدان لأن تتمتع بالاكتفاء الذاتي Autarky ، لأن الاكتفاء الذاتي غير ممكن حتى لأكثر البلدان حجماً واتساعاً. كما ان حرية التبادل التجاري باتت ضرورة أساسية لنمو الاقتصاد الوطني وتقدمه. فحرية التبادل التجاري على نطاق عالمي باتت تشكل ركناً أساسياً من أركان حياة الإنسان المعاصر.

مع التداخل والتكامل التجاريين، جاء التحرر من هيمنة الشوفينية في المجالات السياسية والثقافية والدينية. فمهما كان وضع بلد ما، فلا بدّ له من أن يعي حقيقة ما يجري على ساحة البلدان الأخرى. فالعالم اليوم يشكل مجال نشاط سياسي واحد. هذه «الوحدة» السياسية الشاملة

تغذيها وتدعمها وسائل إعلام متطورة وسريعة تشمل الإعلام المطبوع والمسموع والمرئي.

وعلى الصعيد الثقافي، بات العالم كتاباً مفتوحاً ينهل من معينه جميع الراغبين في التعلم والتثقف. فالأفكار والمفاهيم تنتقل من مكان الى آخر بحيث بات للإنسانية مجموعة مشتركة من القضايا التي تشغل بال الجميع من دون استثناء. اتصلت الثقافات وتفاعلت على نطاق واسع بحيث غابت عن الساحة الثقافة الواحدة المستقلة فتفاعلت ونمت الثقافات الهاجعة التقليدية.

في مجال الدين، اتصلت الأديان كما لم تتصل من قبل، فقام حوار الأديان الذي كان غائباً فبات التكامل الديني أمراً ممكناً ومرغوباً فيه.

كل هذه التطورات ساهمت في «خَلْقِ» العالم الواحد الذي يشمل من طريق الاتصال، شرائح المجتمعات البشرية كافة. عالم اليوم عالم ديناميكي لأنه قائم على التفاعل ومن طبيعة التفاعل التجاذب والنزاع والوفاق.

إن تداخل العالم المعاصر وتكامله باتا حقيقة ثابتة لا جدال فيها، فمن يحاول الابتعاد عن مجريات الأمور يُعّرض نفسه للانعزال والموت البطيئ. وخير مثال على هذا النموذج ما تحاول كل من كوريا الشمالية وكوبا عمله. باختصار بات التداخل والتكامل يدعمهما الانفتاح النموذج الطبيعي على الساحتين القومية والدولية.

٢ ـ خصائص عالم التداخل والتكامل

لا يمل المراقبون من التكرار بأن العالم المعاصر بات «قرية كونية». ومن خصائص المجتمع القروي الاتصال والتواصل الدائمان. فأبناء القرية الواحدة على معرفة وثيقة بحقائق الحياة التي تخص القرويين جميعاً ولا تخفى عن الواحد منهم أدق التفاصيل حتى الشخصية الحميمة منها. الكل على اطلاع وافٍ على أخبار بعضهم البعض. القرويون يتعاونون ويتنافسون ويتنازعون. هم دائماً في تفاعل دائم، والساحة القروية عرضة

لشتى التجاذبات. الشرف والكرامة يلعبان دوراً مميزاً في تعاطيهم بعضهم مع بعض، والشرف والكرامة والسمعة تحتل مركزاً مرموقاً يطغى في كثير من الأحيان على دفاعهم عن مصالحهم الاقتصادية. فالقرويون يتكلمون لغات عدّة، لأن نقطة انطلاقهم المصلحة الذاتية وليست المصلحة العامة. يتّحدون فقط عندما تبرز قرية منافسة. رغم كل النزاعات الداخلية، تبدو القرية للمراقب الخارجي مثال الوحدة والتداخل.

القرية الكونية العتيدة تشبه في الكثير من خصائصها القرية الواقعية. فوسائل الاتصالات والمواصلات المتطورة تضع «ابناء» القرية الكونية على مقربة من بعضهم لبعض فيتفاعلون بصورة مباشرة ودائمة. معرفة طرف للطرف الآخر وثيقة، ما يخلق أجواء ايجابية تساهم في قيام تعاون وتداخل وتكامل. لكن التفاعل بين «ابناء» القرية الكونية ـ أي المجتمعات القومية ـ يؤدي في أحيان كثيرة الى الخلاف والنزاع. هذه الخلافات «الداخلية» في القرية الكونية، كثيراً ما تؤدي الى تجاذبات تنتهي باللجوء الى العنف والقتال. فيسود القوي ويتراجع الضعيف. أما سبب النزاعات فيكمن في سيادة المصلحة «الفردية» على المصلحة العامة فتعم الفوضى والحروب.

أهم خصائص التداخل والتكامل القائمين على الساحة الدولية منذ مطلع الخمسينات، اتساع مفهوم السياسة الدولية والنظام العالمي. لوقت قصير مضى، اقتصر مفهوم السياسة الدولية والنظام العالمي على بضع دول اوروبية وغربية، بينما كانت بقية دول العالم مستعمرات أو مناطق نفوذ للدول الغربية، تعيش على هامش الحياة السياسية الدولية. لكن مع قيام الأمم المتحدة وفتح عضويتها للدول الأُخرى المستقلة حديثاً ومع اندلاع الحرب الباردة، اتسعت حلقة الحياة السياسية الدولية فسُمع صوت بعض الدول للمرة الأولى. كان لتطور مفهوم السياسة الدولية أثران ايجابيان كمي ونوعي، فتضاعف عدد اللاعبين وانتشر الوعي السياسي على نطاق واسع لم تشهده الساحة السياسية من قبل.

تَضَاعُف عدد اللاعبين على الساحة الدولية فاجأ الممسكين بالقيادة

السياسية الدولية وأربك القابضين على خيوط اللعبة، هذا التضاعُف في عدد اللاعبين وتّر الاجواء السياسية في ظل نظام عالمي ثنائي كان يشكو من التوتر وعدم الاستقرار. كثرت النزاعات وتواترت الحروب الاقليمية والأهلية فاندلعت أكثر من مئة حرب بين العامين ١٩٤٥ و١٩٩٠. طبعاً ليست الدول الحديثة مسؤولة لوحدها عن هذه النزاعات، بل إن النظام العالمي القائم آنذاك غذاها ودفعها الى مصيرها المحتوم . فتحولت نعمة زيادة عدد اللاعبين الى نقمة.

أما التطور النوعي في مفهوم السياسية الدولية فساهم من حيث لا يدري في تفاقم الوضع السياسي الدولي. فانتشار الوعي السياسي وتعزيز الفكر السياسي ساهما في بلدان العالم الثالث في تعميق الهوة السياسية بين القيادات والقاعدة. فالقيادات لم تستطع أن تلبي حاجات الشعوب الواعية والمتطلعة الى غد أفضل، فكثرت الانقلابات العسكرية والسياسية واتسعت الهوة بين الطرفين فقامت النزاعات الأهلية التي غذاها طرفا النظام العالمي القائم.

كان لاتساع مفهوم السياسة الدولية نتيجة جانبية هي تعزيز التكامل والترابط العالميين على جميع الاصعدة. هذا التطور قوّى من مفهوم التداخل والاندماج والتكامل والترابط بحيث بات مفهوم العولمة من بديهيات العالم المعاصر.

هذا التداخل والتكامل اللذان عززهما اتساع مفهوم السياسة الدولية اندفعا خطوات واسعة مع إتمام اكتمال التكامل الاقتصادي والتجاري. جاء التواصل التجاري الخطوة الأولى منذ عشرات السنين نحو تحويل العالم الى سوق واحدة كبيرة، فلعبت السياسات الاستعمارية دوراً كبيراً في هذا الاتجاه. لكن التعاون الطوعي في هذا السياق أتى مع حصول المستعمرات السابقة على الاستقلال فتابعت قيادات الاستقلال ما أرست قواعده الدول المستعمرة، فباتت هذه الدول المستقلة جزءاً لا يتجزأ من كُلٍّ متكاتف متراص. ولم يقلل من أهمية هذا التكامل التجاري وجود سوق فرضها الاتحاد السوفياتي على نفسه والدول التي كانت تدور في فلكه، لأن هذه

السوق تعاملت مع السوق الأوسع بصورة شبه طبيعية بحيث اعتمدت السوق السوفياتية الاشتراكية جزئياً على السوق الغربية الرأسمالية. ومن ناحية أخرى، لم تشكل السوق السوفياتية منافسة تذكر للسوق الغربية وذلك لقلة السلع الاستهلاكية المنتجة في بلدان الكتلة السوفياتية المنافسة للبضائع والسلع المنتجة في البلدان الغربية الرأسمالية.

واتسعت حلقة التكامل الاقتصادي في اتجاهين متممين كلاهما للآخر، الاتجاه الأول رسمت خطوطه العريضة الشركات المتعددة الجنسية MNCs في الولايات المتحدة، وبريطانيا، واليابان، وفرنسا والمانيا والتي أقامت فروعاً لها في الدول المتطورة ودول العالم الثالث. فالتوظيفات المالية هذه بلغت مليارات الدولارات بحيث فاقت مداخيل بعض الشركات مداخل وميزانيات دول العالم الثالث، فمارست نفوذاً اقتصادياً ومالياً وتجارياً وسياسياً هائلاً. لكن نفوذ هذه الشركات العملاقة الاقتصادي بلغ القمة في أسواق الدول المتطورة الأخرى.

أما الاتجاه الآخر فجاء بواسطة التوظيفات المالية المعتمدة من قبل بعض البلدان الثرية، مثل الولايات المتحدة واليابان والمانيا والتي جاءت على شكل قروض وهبات للكثير من دول العالم الثالث. وقد ساهمت مؤسسات مالية عالمية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمات الأمم المتحدة في توسيع حلقة الاستثمارات والقروض والمساعدات.

هذا النشاط المالي والاقتصادي على المستوى العالمي، عزز التكامل على الصعيد المادي بين جميع دول العالم. ويشهد العالم اليوم هجمة نحو دول الكتلة السوفياتية من أجل دمجها في السوق العالمية الاقتصادية والتجارية والمالية. وهذه الهجمة تعمل على تحطيم معاقل الانعزالية الاقتصادية. ومن التطورات الاقتصادية اللافتة على هذا الصعيد، انفتاح السوق الصينية اقتصادياً على السوق العالمي. ولم يبقَ خارج هذا الإطار سوى جيوب ليست ذات أهمية.

ولا تكتمل صورة التكامل العالمي ما لم نأت على ذكر الانفتاح الفكري

الذي تشهده الساحة الدولية، خاصة بعد مجزرة ١١ «تياننمن» عام ١٩٨٩ في الصين، وسقوط الستار الحديدي الذي فصل الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية عن اوروبا والعالم ردحاً من الزمن. وقد ساهمت ثورة الاتصالات في دك جميع حصون الانعزال الفكري في كل مكان، فبات الترانزيستور في الستينات والتلفزيون في السبعينات والكومبيوتر في الثمانينات والبث الفضائي والإنترنت في التسعينات، رمزاً للانفتاح على العالم والتكامل معه وعدواً لانغلاق وتقوقع الحكام في كل مكان.

التكامل الفكري خلق أجواء تقارب وتعارف وتفاعل ساهمت في تحطيم الكثير من الحواجز التي تفصل الشعوب بعضها عن بعض، وأزالت الكثير من الآراء الخاطئة والصور المشوهة للإنسان المعاصر، مهما كان وطنه وموقعه على الكرة الأرضية.

تحتل اللحمة الفكرية المركز الأول في حياة الانسان، فالفكر يجمع أو يفرق لكن اللحمة الفكرية القائمة على المعرفة تجمع ولا تفرق. ان اللحمة الفكرية القائمة نتيجة التكامل الفكري تبشر بقيام علاقات ايجابية بين شرائح المجتمع البشري، وإن الرابطة الفكرية التي تشد ابناء البشرية حالياً لا مثيل لها في تاريخ الانسان بحيث بات من الممكن تصور قيام أخوة بشرية حقيقية في المستقبل غير البعيد. لا نغالي إذا قلنا ان التكامل الفكري يفتح آفاقاً جديدة نحو قيام أسرة عالمية تعمل نحو البناء والتعاون والسلام وأخوة انسانية حقيقية. ولعمري هذا تطور ثوري يحمل في طياته بشائر خير واستقرار للجميع.

إن التكامل السياسي والاقتصادي الثقافي يقود بالضرورة الى التكامل الديني، ذلك البعد الخفي في حياة الأمم والشعوب. إن حوار الأديان الذي بدأ فعلياً مع نهاية القرن الماضي اتسع اليوم في نهاية القرن العشرين بحيث يحمل في طياته تفاعلاً ايجابياً سلمياً بعد أن كان نزاعاً في كثير من الأحيان.

من البديهي القول إنه لا يوجد مجتمع من دون دين. وهذا القول ينسحب على المجتمعات والأنظمة التي تحارب الدين، إذ إن هذا الموقف

المعادي للدين هو موقف ديني من حيث المبدأ. فالدين يشغل حيزاً كبيراً في حياة الإنسان كما تفعل السياسة والاقتصاد والفكر. من هذا المنطلق نركز على أهمية التكامل الديني على مسيرة العالم واستقراره.

فالتكامل الديني الحاصل والذي يمثل الحوار الديني أهم رموزه، إنما تمَّ نتيجة الاتصال والتكامل الفكري. ففي الماضي، لم يكن حاملو الرسالات الدينية هم وحدهم المبشرين، بل ساهم التجار في نقل هذه الرسالات ونشرها. وكما السلع والبضائع والخدمات والترويج في الوقت الحاضر يحمل الأفكار من بلد لآخر، فالتجارة تخلق الأجواء المؤاتية لاتصال الديانات وتفاعلها. ولشد ما تكون دهشة رجالات الدين كبيرة عندما يكتشفون ان الاختبار الديني اختبار مشترك لمختلف الديانات وتعددها. فالمسيحية والإسلام واليهودية والبوذية والهندوسية وحتى الديانات «البدائية» في افريقيا والجزر النائية المعزولة، تشارك جميعها في الاختبار الديني الذي يُفسر حقائق الحياة والكون والإنسان. فالاختبار الديني اختبار انساني في الدرجة الأولى تساهم فيه الأديان المختلفة كافة، وإن بأساليب متعددة.

اذاً، إذا كان الاختبار الديني واحداً لدى جميع الأديان، أي إذا كان منطلق الدين واحداً، يصبح عندها الحوار الديني أمراً ممكناً ومرغوباً فيه. إن الحوار الديني بين الأديان ما زال في طوره الأول، نظراً للتوجهات التقليدية، وتاريخ علاقة بعض الأديان بعضها ببعض وللعداء السافر القائم على الجهل وعدم معرفة طرف ديني للطرف الديني الآخر. لكن هذا الحوار المبدئي سيكمل ما فعلته السياسة والاقتصاد والفكر في سبيل قيام تكامل انساني شامل يضم مختلف نشاطات الإنسان الفرد والمجتمعات.

إن التكامل الحاصل في المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية على الساحة العالمية، يعمل على وضع أسس جديدة لحياة دولية جديدة تنبع من هذا التكامل والاندماج، وبالتالي سيؤدي الى قيام نظام عالمي يختلف عن الأنظمة العالمية السابقة، القديم منها والحديث والمعاصر.

٣ ـ لاعبون في التكامل العالمي

الأمة ـ الدولة هي اللاعب الأول في عملية التكامل العالمي. لكن الأمة ـ الدولة ليست اللاعب الوحيد على الساحة الدولية، مع أنها اللاعب الأكثر تأثيراً وفاعلية اليوم ولوقت طويل في المستقبل. يوجد لاعبون آخرون جاءوا نتيجة تطور تدريجي وطبيعي لعلاقة الأمم ـ الدول بعضها ببعض ونتيجة لتطور الفكر والعلم والتكنولوجيا ـ في الزمن الحديث. هؤلاء اللاعبون يحتلون إما موقعاً متقدماً على الأمة ـ الدولة أو موقعاً أقل أهمية من الأمة ـ الدولة ـ لكن كلا النوعين من اللاعبين يتخطيان دور الأمة ـ الدولة وينافسانها في لعبة الانتماء والولاء.

هذان النوعان من اللاعبين هما المنظمة الدولية والمنظمات الأهلية غير الحكومية NGOs. المنظمة العالمية النهائية هي الحكومة العالمية. لكن قيام مثل هذا التنظيم مرهون بتطورات كثيرة لسنا بصدد الحديث عنها الآن. غير أن المنظمة العالمية الحالية التي نتكلم عليها هي منظمة الأمم المتحدة ومنظومة المنظمات الدولية الأخرى التابعة لها أو تلك التي تهتدي بها.

ظهرت منظمة الأمم المتحدة على انقاض منظمتين قامتا على أثر حربين طاحنتين. فتفاهم اوروبا Concert of Europe الذي قام على أثر الحروب النابوليونية عام ١٨١٥ والذي حفظ السلام العالمي قرابة قرن من الزمن، مهّد السبيل لقيام أول منظمة عالمية عام ١٩١٩ إثر الحرب العالمية الأولى. فكانت عصبة الأمم، التي خرجت من رحم اتفاقية السلام في فرساي، والتي جاءَت حصيلة جهد خاص بذله رئيس الولايات المتحدة آنذاك، ودرو ولسن. وقد فشلت في أن تلعب دوراً ناجحاً في جميع الأهداف التي وضعتها لنفسها. فلا هي لعبت دور الحَكَم في النزاعات الاوروبية والدولية، ولا هي نجحت في إدخال مفهوم الأمن الجماعي على الساحة الدولية. فهوت وتداعت بعد عقدين من قيامها.

وقامت منظمة الأمم المتحدة على أثر أول حرب عالمية فعلية شاملة. فالحرب العالمية الأولى اقتصرت على المعارك في اوروبا، بينما الحرب العالمية الثانية ورطت العالم في معارك ونشاطات طاولت قارات الأرض

الخمس. وبما أننا لسنا في صدد إجراء جردة حساب للأمم المتحدة سنقتصر في حديثنا على الدور الذي لعبته في تعزيز التكامل العالمي.

ساهمت منظمة الأمم المتحدة كمنبر عالمي في خلق أجواء فكرية إيجابية تعزز الفكرة العالمية التي هي نتيجة طبيعية لتداخل العالم وتكامله الحاصلين على الساحة الدولية. إن مندوبي الدول في منظمة الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها لا يستطيعون إلا أن ينظروا الى القضايا المطروحة بمنظار كوني. فمجلس الأمن والجمعية العمومية واليونسكو، ومنظمة العمل الدولية، ومنظمة الصحة الدولية... الخ تناقش وتتخذ القرارات التي تخص العالم أجمع وليس دولة واحدة فقط. فمن طبيعة التكامل أن ينظر الى الأمور من أوسع زاوية ممكنة. فالتكامل والفكرة العالمية يتغذيان ويتكاملان من خلال العمل داخل المنظمة الدولية وخارجها.

وقد ساهمت منظمة الأمم المتحدة في أكثر من مجال في دعم التداخل والتكامل العالميين. فقوات حفظ السلام الدولية وأعمال المنظمات الدولية في المجالات الثقافية والصحية والعمالية والتنموية عززت التفاهم والتعاون الدوليين. فالتكامل في غياب التفاهم والتعاون يبقى مفهوماً طوباوياً غيبياً. كما نقلت منظمة الأمم المتحدة في أكثر من مجال وفي أكثر من مناسبة العالم الى مناخات التضامن والتفاعل السلميين الذي لا غنى للتكامل عنهما.

باختصار، كون منظمة الأمم المتحدة ساهمت في حفظ السلام العالمي لأكثر من نصف قرن ساعد في دعم مفهوم التكامل العالمي وعزز الوفاق بين الأمم والشعوب. إن دور المنظمة مرشح للتطور في اتجاه العالمية التي هي امتداد عملي للتداخل والتكامل العالميين. صحيح ان منظمة الأمم المتحدة ليست حكومة عالمية، لكنها تتجه نحو قيام مثل هذه الحكومة في المستقبل. زد على ذلك، أن فكرة المنظمة الدولية بحد ذاتها تتعدى مفهوم الأمة ـ الدولة، رغم أن هذه الأخيرة هي الوحدات التي تتألف منها عضوية الأمم المتحدة.

أما النوع الثاني من اللاعبين فهو المنظمات والهيئات والجمعيات

الأهلية غير الحكومية NGOs العاملة من خلال الأمة ـ الدولة الواحدة باتجاه العالم. هذه المنظمات والهيئات غير حكومية، وفي معظم الأحيان تتخطى المفهوم القومي الضيق لتعمل في رحاب دولية من دون التقيد بسياسات بلدها. فمؤسسة كاريتاس، وأطباء بلا حدود، وامنستي انترناشونال Amnesty International تعمل للدفاع عن قضايا ومجالات تخص بصورة عامة دول العالم الثالث من دون انتظار موافقة حكوماتها. إن هذا النمط من الهيئات والجمعيات، بالإضافة الى جمعيات السلام وحقوق الإنسان المنتشرة في كل البلدان ، هي منظمات دولية بكل معنى الكلمة وتشد أزر التداخل والتكامل العالميين. زد على ذلك، الهيئات العاملة في مجال مكافحة التلوث والمخدرات والتي تساهم في ترجمة الأفكار الدولية الى أعمال واقعية. إن عالمية هذه المنظمات تعمل جنباً إلى جنب مع منظمة الأمم المتحدة في عقد المؤتمرات وتنظيم الاجتماعات مثل مؤتمر «قمة الأرض» الأول عام ١٩٩٢ والثاني عام ١٩٩٧ برعاية الأمم المتحدة. جميع هذه الجهود المبذولة تُعَزِز وتقوّي التداخل والتكامل والاندماج العالمي.

إن الحديث عن اللاعبين في التكامل العالمي يقودنا الى التكلم بإيجاز على الفكرة ـ الهدف التي تحرك معظم شعوب العالم الثالث وأممه: العصرنة. العصرنة هدف الجميع في العالم الثالث وهي الوسيلة في نظر قادة هذه الدول وشعوبها للتحديث والانتقال من موقع التخلف والفقر الى موقع التطور والبحبوحة بواسطة الجهد المنفرد وبمساعدة الدول المتطورة والمنظمات والهيئات الدولية وغيرها. إن العصرنة كهدف جعلت من العالم أجمع خلية نحل وورشة عمل متداخلة ومتكاملة. فالخبرات والمهارات تنتقل من دولة لأخرى ومن قطاع الى قطاع في محاولة لردم الهوة بين المتطور والمتخلف، والغني والفقير. إلا أننا لسنا بصدد إصدار الأحكام أو تقويم هذا الهدف، لكن جل ما نتوخاه هو الإشارة الى أن محاولة العصرنة ساهمت في تعزيز الفكرة العالمية التي لا مندوحة للتكامل العالمي بدونها.

في ختام هذا الفصل، لا بُدَّ من الاشارة الى دور هام جداً أخذت تلعبه منظمة الأمم المتحدة على الساحة الدولية، وهو دورٌ متمم للتكامل العالمي. هذا الدور هو أن الأمم المتحدة باتت، وإن بصورة متواضعة، مرجعية دولية للكثير من القضايا المطروحة على الساحة العالمية، بحيث تستمد هذه القضايا وتلك القرارات شرعية كانت غير موجودة في السابق. هذه المرجعية تأخذ طابعاً قانونياً وأخلاقياً في التعاطي مع الشؤون الدولية. هذه المرجعية هي تتويج لجهود التكامل المبذولة على جميع الأصعدة.

أخيراً، نشير الى أن التداخل والتكامل بين الشعوب والأمم ما هما سوى مرحلة انتقالية نحو الاندماج الكامل. ويبدو من المبكر أن نتكهن عن الشكل النهائي الذي سيأخذه هذا الاندماج والتكامل.

الفصل السابع

العالمية

Internationalism

١. تمهيد

مرت العالمية بثلاث مراحل: المرحلة الطوباوية، المرحلة العقائدية والمرحلة البرغماتية. ضمت المرحلة الطوباوية جميع النظريات والفلسفات والديانات الكبرى التي ظهرت على الساحة الفكرية منذ أقدم العصور حتى أواخر القرن التاسع عشر، وهي مرحلة تميزت بعدم الواقعية بل انطلقت من الخيال الجامح الذي هو بعيد كل البُعد عن واقع المجتمعات البشرية وظروفها. أما المرحلة العقائدية فتمتد من أواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب الباردة، وهي مرحلة تتميز بزخم عقائدي يجمع بين الطوباوية والخيال الجامع من جهة، والواقعية المحدودة من جهة ثانية. وقد رافقت المرحلة العقائدية ظهور الفكر الاشتراكي وواكبت قيام الاتحاد السوفياتي الذي نادى بالعالمية لأسباب غير تلك التي ننادي بها. هذه المرحلة شهدت إفلاس العقائدية المتزمتة في العمل لقيام عالمية حقيقية. أما المرحلة البرغماتية فبدأت مع مطلع التسعينات وهي مستمرة حتى الوقت الحاضر. تتجلى المرحلة البرغماتية بأُفق واسع لكن عملاني، وهي تقوم على فهم دقيق للأهداف الإنسانية البعيدة المدى وواقع الحالة الإنسانية بمختلف تفرعاتها.

كوننا نمر اليوم بالمرحلة البرغماتية لا يعني أن توجهات المرحلتين السابقتين اختفت. المرحلة البرغماتية لم تلغ كلاً من المرحلتين الطوباوية

والعقائدية. جل ما في الأمر ان توجهات المرحلة الراهنة البرغماتية تؤثر في عدد أكبر من المواطنين؛ علماً ان المرحلتين الأولى والثانية تعززان موقع المرحلة الثالثة وتشدان من ازرها. فالعالمية البرغماتية تدفع العالم في طريق التعاون والتكامل والاندماج بصورة عملية تطويرية. وتبقى العالمية هي هي بغض النظر عن الاسلوب المعتمد لتحقيق أهدافها.

٢ ـ أهداف العالمية

للعالمية هدف رئيسي واحد وهو جمع شتات الشعوب والأمم تحت مظلة نظام عالمي عادل، نظام يحافظ على خصوصية كل شعب وأمة، وفي الوقت ذاته يؤكد على التعاون والمشاركة في علاقات المجتمعات القومية المتعددة. هذا ليس الهدف النهائي للعالمية. ان هدفها النهائي هو تحقيق حلم البشرية الطوباوي في قيام حكومة فدرالية عالمية واحدة تضم كل المجتمعات البشرية.

أما الأهداف الأخرى للعالمية فتتمحور حول كيفية انتقال النظام العالمي الحالي القائم على الهيمنة والنزاعات والحروب الى نظام عالمي تعاوني يعتمد المشاركة والتكامل، بدلاً من نظام قائم على شر الأنانية الجماعية المتمثلة بالشوفينية الهدامة والفصل بين الشعوب والأمم. سنأتي على أهم هذه الأهداف التي نعتبرها أهدافاً مرحلية انتقالية.

إن هدف العالمية المرحلي الأول هو تشجيع القوى الكبرى الأخرى مثل الاتحاد الأوروبي والصين واليابان على لعب دور أكبر على الساحة الدولية من أجل التخفيف من وطأة هيمنة الولايات المتحدة في الوقت الحاضر، إذ تمسك واشنطن بزمام القرار العالمي منفردة، بينما القوى العالمية الكبرى تماشي القرار الاميركي دون معارضة تُذكر.

هدف مرحلي ثانٍ للعالمية هو دفع القوى والهيئات والمنظمات الأهلية غير الحكومية للحد من مساوىء السلوك والتصرف القوميين اللذين يؤججان المنافسة والنزاع والصراع بين المجتمعات البشرية ويحولان دون تعاون ومشاركة فعّالة بين الأمم. فالسلوك القومي الطبيعي ـ وليس

الشوفيني فقط ـ يدعم التضامن الدولي الذي يجب أن يعكس واقع التداخل والتكامل العالميين.

يجب أن تعطى الروح القومية السائدة على الساحة الدولية حالياً المجال لتحقيق ذاتها، خاصة في دول العالم الثالث ودول المجموعة التي انفصلت عن الاتحاد السوفياتي موخراً. لكن في الوقت ذاته يجدر توجيه النظر الى قيادات هذه الشعوب والأمم الى أن القومية ليست هدفاً نهائياً بل مرحلة انتقالية تقود الى العالمية. كما يجدر لفت نظر هذه الأمم الى أن التفكير والسلوك القومي غير الاعتيادي باتا مفارقة تاريخية في عالم يعيش حالة عالمية بكل أبعادها، وأن القومية لا بد أن تتراجع أمام المد العالمي. ان القومية لن تزول أبداً لأنها تعبير صادق عن شعور الانتماء السياسي والحضاري للجماعة. وإن الولاء للأمة لا يتعارض مع الولاء للإنسانية، كما أن الولاء للعائلة والحزب في المجتمع القومي الواحد لا يتعارض مع الولاء للأمة.

هدف مرحلي أخير للعالمية هو نشر الوعي السياسي بين جميع الشعوب والأمم على نطاق واسع. صحيح أن وسائل الإعلام الحالية تخدم عملية انتشار المعرفة السياسية في كل مكان. لكن الصحيح أيضاً أن هذه الوسائل تخدم مصالح معينة تمنع نشر وعي سياسي صحيح قائم على الحقائق والمعلومات. ان معظم هذه الوسائل موجهة لخدمة مآرب سياسية قومية ضيقة. فالبشرية تملك اليوم المعرفة الكثيرة عن السياسة والاقتصاد والثقافة التي يمكن استخدامها لنشر الوعي السياسي الذي يصبّ آخر المطاف في العالمية.

لكن نشر الوعي السياسي يصطدم بعقبتين كؤودتان هما أولاً، عدم اكتراث شعوب الدول المتطورة بالسياسة عامة، والسياسة الخارجية خاصة، وثانياً، الجهل المطبق في المجتمعات المتخلفة. فالعقبة الأولى تحول دون مشاركة شرائح كثيرة مثقفة في القرار السياسي المحلي والعالمي. هذه الشرائح يمكن تحريكها بتعريضها لجرعات متواصلة من الفكر السياسي الأصيل الخالي من شوائب الشوفينية المضرة. أما العقبة

الثانية فيمكن التغلُّب عليها من طريق رفع مستوى هذه الشعوب اقتصادياً وتربوياً وثقافياً.

هذه الأهداف، الرئيسي منها والمرحلي، تتعاون معاً لخلق تيار فكري وسياسي يعزز موقع العالمية، خاصة في المجتمعات والكيانات التي تخطت التقوقع القومي والشوفينية الهدامة.

٣ ـ مراحل العالمية الثلاث

أ ـ المرحلة الطوباوية

في هذه المرحلة، لعب الدين عامة والديانات السماوية الثلاث، اليهودية، والمسيحية والإسلام، والديانات الكبرى الأخرى مثل الهندوسية والبوذية دوراً حاسماً في زرع بذور العالمية. جميع هذه الأديان ومجمل الاختبار الديني نادى بالأخوة الإنسانية. وما الأخوة الإنسانية سوى الوجه الآخر للعالمية. بشّر قادة هذه الأديان على مرّ العصور بأن الانسان أخ الإنسان ولا فرق بين انسان وآخر سوى بالإيمان بهذه الأخوة. لكن الظروف التقنية والتنظيمية حالت دون إيصال هذه الرسالة الى الجميع فبدت هذه الديانات على الصعيد الحياتي على أنها «ديانات قومية» محصورة في نطاق مجتمع واحد. كما أن الظروف الاقتصادية والتجارية الضيقة حالت دون انتشار هذه الأفكار فأُعلن برنامج الـ ١٤ نقطة وقامت عصبة الأمم ومنظمة العمل الدولية ومحكمة العدل الدولية. لكن الشعب الاميركي خذل رئيسه فتراجعت العالمية البرغماتية، إلا أنها بقيت حية حتى هذا الوقت. إذ تتميز العالمية البرغماتية بالمزايا التالية:

أولاً، العملانية. فهي ليست ضرباً من الخيال ولا تقوقعاً في الحاضر. لها أبعادها الفكرية النظرية من دون أن تضيع في متاهات الفكر. تنظر الى الحاضر على أنه السبيل الى المستقبل. فالماضي يُحفز والحاضر يدفع بالمسيرة والمستقبل يُنفذ.

ترى العالمية البرغماتية في القومية السبيل الى العالمية، وهي ليست عقبة بل مرحلة لا بُدَّ من المرور بها الى العالمية، زد على ذلك، أنه بنظر

البرغماتية لا يجوز حرق المراحل. من هذا المنطلق، القومية هي «المطهر» الذي به يتخلص الإنسان من الأنانية الجماعية المتطرفة ليصل الى «جنة» العالمية.

ثانياً، المثالية. سيستغرب البعض كيف يمكن ظهور العالمية بثوب طوباوي غير واقعي وغير عملاني.

وما حال دون وصول الصوت العالمي الديني، حال دون انتشار آراء المفكرين القدامى مثل افلاطون ومور وكانط وسواهم من كبار مفكري العالمية الأوائل.

ساهم الدين والفلسفة في الماضي بوضع اللبنات الأولى للتفكير السياسي للعالمية، لكن مع طغيان الروح القومية «الانفصالية» تراجع مفهوم العالمية. ومن ناحية ثانية، لم يشكل الفكر الديني والسياسي للعالمية نظاماً واحداً متماسكاً، فبقيَ أفكاراً مبعثرةً ينقصها التوجيه والتنظيم. مهّدت الأفكار الدينية والسياسية للعالمية الطوباوية الطريق للعالمية العقائدية التي برزت كقوة فكرية ديناميكية وتنظيم عملاني فعّال والتي شكلت إطاراً واضحاً تمثّل بتسلم السلطة في روسيا عام ١٩١٧ من قبل العالمية المزيفة، وانتهت هذه التجربة بسقوط الاتحاد السوفياتي لاحقاً.

ب ـ المرحلة العقائدية

طغت على المرحلة العقائدية المفاهيم الاشتراكية الفابية والماركسية. إلا أن الفابية بقيت حركة فكرية محدودة التأثير فاقتصر نشاطها على جهود أفراد قلائل. بينما الماركسية لاقت قبولاً كبيراً وانتشاراً واسعاً تُوِّج باستلام الماركسيين الحكم في روسيا عام ١٩١٧.

نادت الماركسية بالعالمية من منطلق فلسفتها القائمة على الثورة العالمية والصراع بين الطبقات وانتصار العمال في كل مكان. بَشّرت الماركسية بالثورة لقيام الاشتراكية فلجأت الى العنف والقوة والكبت كطريق مناسب لقيام العالمية. لم تُولِ الماركسية الاهتمام الكافي للنزعة

القومية فأهملتها. ولم تدرك ان العالمية تولد من رحم القومية بصورة تدريجية وليس من الثورة والعنف والصراع وانتصار طبقة العمال.

تميزت الماركسية بالعقائدية المتزمتة فأوصدت الباب أمام قيام طريق وسط، فكانت النتيجة إما الانتصار الكامل أو الفشل الكامل. وكما هو شأن كل عقيدة، كانت المرونة غائبة عن التوجه الماركسي فانهار وانهار معه مفهومه للعالمية. ومن غريب المفارقات ان سقوط الاتحاد السوفياتي، الدولة الوحيدة حاملة العالمية، ساهم في تعزيز العالمية البرغماتية بدلاً من أن يضعفها.

لعبت العقيدة الماركسية التي تبناها الاتحاد السوفياتي خلال تاريخه حتى العام ١٩٩٠ في نشر العالمية وتعميمها بالمطلق. تعززت العالمية من خلال التثقيف السياسي داخل كتلته والدعاية السياسة في الخارج. فالإرث الماركسي ـ اللينيني يُساهم اليوم في تعميم العالمية وإن لأسباب وبأساليب مختلفة غير التي اتبعها عندما كان الشيوعيون في الحكم. كما أن النظرة الماركسية كنمط تفكير منذ العام ١٩١٧ وحتى اليوم، تعدلت كثيراً بحيث اقتربت من الطرح البرغماتي للعالمية.

ج ـ المرحلة البرغماتية

باتت البرغماتية اليوم تياراً فكرياً جارفاً وطريقة عيش وأسلوب عمل وتصور للكون والحياة والإنسان. بكلمة باتت البرغماتية فلسفة شاملة لكل أوجه النشاط الإنساني. وهذا هو سر ديمومتها وانتشارها. كثيرون جداً هم البرغماتيون، لكن قليلون هم الذين يعون أنهم برغماتيون.

ان العالمية البرغماتية هي شكل من أشكال النشاط البرغماتي العام وهي تتميز بنظرة عملانية تدريجية تجمع المزايا الايجابية للعالمية الطوباوية والعالمية العقائدية. وجدت العالمية البرغماتية في العالم الجديد على يد رئيس الولايات المتحدة الأسبق، ودرو ولسون.

كان ولسون صاحب رؤية وعت حركة التاريخ الحديث فعكست الواقع الحياتي والوجودي الذي تمر به المجتمعات البشرية. شاء ولسون أن

يترجم مفهومه للعالمية من خلال برامج ومؤسسات للعالمية البرغماتية تجمع بين العملانية والمثالية. لا تناقض بين هاتين الميزتين، إنهما تكملان بعضهما. فالعملانية بدون مثالية طبل فارغ، والمثالية دون عملانية تجر الى طوباوية خيالية. أهمية المثالية أنها تُبقي مفكريها وقادتها في مرتبة فكرية متقدمة تدفع العالمية بقوة واستمرار للمثابرة نحو تحقيق أهدافها.

وتتميز العالمية البرغماتية بالانفتاح. فهي كتيار فكري، منفتحة على شتى التيارات الفكرية السياسية والثقافية والحضارية. تأخذ الكثير وتعطي الكثير. فلا تنفك تتفاعل مع المحيط مهما ناصبها العداء. فهي لا ترى حرجاً من أن تتعلم من الآخرين خدمة لأهدافها الكبرى. تتعلم الكثير من العالمية الطوباوية والعالمية العقائدية، كما تستوعب الدروس من اخطاء المدرسة السياسية الواقعية لأجل تحسين إدائها.

٤ ـ مخاوف:

هنالك مخاوف كثيرة من نجاح مسيرة العالمية، منها تسارع خطاها والوقوع في الأخطاء التي ارتكبتها السياسات السابقة. ومنها أيضاً الابتلاء بروح الخيلاء والغرور، ما يفقدها طابعها الأخلاقي المميز. أما أهم هذه المخاوف قاطبة فهو، بسبب النجاح الكامل وليس بسبب الفشل، أن تتحول العالمية الى «قومية» من نوع جديد بحيث تتحول البشرية على سطح الكرة أمة واحدة تتصرف كالأمة التقليدية المعروفة لدينا جيداً.

لكن تصرف أمة مرهون بعلاقتها بالأمم الأخرى. ففي مثل هذا الحال، كيف يمكن «لأمة الأرض» ان تتصرف إذا لم يكن هناك أمم أخرى تواجهها. هذا طبعاً مرتبط بنجاح غزو الفضاء في العثور على مخلوقات ذكية على الكواكب الأخرى، خاصة وأننا نتكلم على تطورات تمتد مئات السنين. فتحوّل العالمية الى حكومة عالمية بعيد المنال رغم كونه محتملاً على المدى الطويل، كما أن اكتشافات الفضاء تستغرق فترات طويلة. مع هذا نقول إن هنالك خطراً حقيقياً من تحول العالمية الى «قومية أرضية» لسبب آخر.

تحول العالمية الى «قومية أرضية» يهدد هذه «الأمة البشرية» الى

ديكتاتورية متسلطة يوجهها نفر قليل من الناس مهووسين بمنطق القوة. فمن محاسن القومية التقليدية أن الأمم تفرض ضوابط وقيود بعضها على بعض، ما يمنع التطرف والتسلط. هذه القيود والضوابط تزول مع تحول العالمية الى «أمة واحدة».

ومما يزيد من هذا الخطر توفر وسائل «الاقناع» المختلفة بتصرف الحكام فتستخدم لمآرب أنانية. فالرأي العام الذي كان يحركه النزاع مع الأمم الأخرى يزول مع قيام «أمة الأرض» فيستكين لقناعات الحكام. إن الخوف على الحرية كبير فيما إذا تحولت البشرية الى أُمة واحدة.

لذا، نأمل بأن تستمر العالمية في ربط شرائح البشرية كافة بروابط حميمة تقوم على التعاون والمشاركة وتولي القضايا الإنسانية المشتركة الاهتمام اللازم فتتعاون وتتكامل البشرية من دون أن تتحول الى أمة واحدة، لأن قيام مثل هذا التنظيم سيقضي على الحرية البشرية ويأتي على نوعية الحياة التي نكافح من أجلها في الوقت الحاضر.

الفصل الثامن

مفهوم الإنسان العالمي

١ ـ تمهيد

الإنسان كائن مَرِنٌ طيّع يتكيف مع الظروف المحيطة به. إن الظروف التي يعيشها الإنسان في مجتمع ما تنتج عن التفاعل مع الأفراد الآخرين الذين يعيشون ضمن الكيان الواحد. فالأفكار السائدة في مجتمع، ما هي إلا حصيلة هذا التفاعل. إن الافكار التي توجه حياة المواطن الفرد إنما تنبع من افكار هو مُوجِدها في الدرجة الأولى. فالظروف هي مجموع أفكار المواطنين، تأخذ شكلاً محدداً اعتماداً على المستوى الفكري للأفراد الذين يشكلون الجماعة، وفي بعض الأحيان تتخذ هذه الظروف شكل عقيدة واضحة القواعد والمبادىء.

إن أفكار المواطن المعاصر تتخطى الكيان الضيق لتتفاعل مع الأفكار السائدة في الكيانات والمجتمعات الأُخرى. هذا التداخل الفكري الذي سهلته وسائل الاتصالات الحديثة المتطورة، أوجد تياراً فكرياً عالمياً تعدى المفاهيم والأفكار القائمة على العقيدة القومية المحدودة المجال مهما اتسعت رقعة الأمة ـ الدولة الواحدة.

لكن في عالم اليوم، عالم التداخل والتكامل، تبقى العقيدة القومية السائدة في كيان ما هي القوة الفكرية الواقعة لتحريك المجتمعات والكيانات وتحفيزها. حتى لو قامت الحكومة العالمية، يبقى الكيان القومي الوحدة التي يتكوَّن منها الكيان العالمي. فالكيان القومي وُجد كي

يبقى معنا الى وقت طويل جداً في المستقبل؛ من أجل ذلك يرى جميع المنادين بالوحدة العالمية في النظام الفيدرالي الطريقة الأمثل لتحقيق هذه الوحدة العتيدة، وفي الوقت ذاته يحافظ الكيان القومي على خصوصيته الثقافية.

فالإنسان العالمي، طليعة قوى الوحدة العالمية، يبقى الطاقة المحركة والقوة الدافعة لتطور النظام العالمي. لكن قبل التحدث عن مفهوم الإنسان العالمي ومزاياه، لا بد من التوقف قليلاً عند الإنسان القومي الذي من رحمه تنطلق مسيرة الإنسان العالمي.

٢ ـ الإنسان القومي

إذا شئنا التحدث عن الإنسان القومي ورسم صورة موضوعية واقعية له، لا بد لنا من ذكر المزايا السلبية والإيجابية إذ لا يمكن أن يكون الإنسان القومي بشعاً لهذه الدرجة.

إن القومية تشكل مرحلة متقدمة على القبيلة والمدينة ـ الدولة Polis لأنها تضم شريحة أكبر من الناس يشاركون في حياة سياسية واقتصادية وثقافية واحدة. هذه المشاركة والأخوة القومية تقيمان علاقات تعاون تقوم على التبادل والتكامل. قيام التعاون الطوعي يعتبر إنجازاً كبيراً لأفراد الأمة الواحدة. فاللحمة التي تربط مواطني الوطن الواحد تسهم في تحقيق السعادة والرفاهية والسلام والاستقرار.

الا ان المزايا والخصائص عينها التي جعلت القومية متعددة الفوائد والمنافع هي عينها التي تجعل من القومية لعنة. فالتعصب الأعمى الذي يعكسه الإنسان القومي هو ذاته الذي يحول دون تعاون الأمم بعضها ببعض. فالإنسان القومي ضيق الأفق، لأن حدود مشاركته تقتصر على ابناء أمته ولا تتعداها الى ابناء الأمم الأخرى، إلا عندما تقتضي مصلحة الأمة ذلك.

من ناحية أخرى، تشكل الأخوة القومية الخطوة الأولى للانطلاق نحو آفاق أوسع وأشمل، إذ لا يمكن أن تكون القومية مرحلة نهائية في عالم

متداخل ومتكامل. إنها مرحلة نحو العالمية الأوسع. كما أن العالمية ليست مرحلة نهائية لأنه يمكن التكهن بأنها ستقود الى نظام أوسع يصعب الآن تحديد مساره.

ومن أبرز سلبيات القومية أن الإنسان القومي يضيق ذرعاً بالإنسان القومي الآخر الذي يمكن أن يكون أكثر ثراءً أو أعتى قوة. لذا ينظر الإنسان القومي الى الإنسان القومي الآخر على أنه غريمه وربما عدوه فتختلج في نفسه مشاعر الغيرة والحسد والنقمة، وكثيراً ما يلجأ الى «تحجيم» غريمه. هذا التحجيم كثيراً ما يأخذ طابعاً عنيفاً فتقع الحروب. طبعاً إن أسباب الحرب أكثر تعقيداً من هذا، لكن الشعور القومي المميز كثيراً ما يكون السبب الخفي للحروب.

وبما أن موضوع بحثنا ليس القومية والإنسان القومي، سيقتصر حديثنا عن الإنسان القومي على النقاط القليلة أعلاه والتي في نظرنا تتعلق بموضوع مفهوم الإنسان العالمي ومزاياه.

٣ ـ مفهوم الإنسان العالمي ومزاياه

يؤمن الإنسان العالمي ان الأنسنة هي الميزة المشتركة التي تربط وتشد الناس بعضهم الى بعض، وهي تتخطى كل الحواجز السياسية والعرقية والاثنية والثقافية التي تحول دون تآخيهم وتعاونهم. فالأنسنة خاصة الكائنات البشرية ولا يشاركها بها أيٌّ من الكائنات الأخرى. كل الحواجز التي أوجدها الإنسان منذ القدم حتى الوقت الراهن، إنما وُجِدت لأسباب أنانية خاصة خدمةً لمآرب ذاتية الأمر الذي رفَعَ العقبات بين الإنسان والإنسان. لكن مع اتساع أفق الإنسان الفكري وزيادة التواصل وانتشار المعرفة، أخذ الإنسان يرى ان العراقيل الموجودة لتضامن وتعاون البشرية هي حواجز مُصطنعة يجب ازالتها. إن الأجواء الفكرية التي تُغلف المجتمعات البشرية اليوم عمَّقت الوعي الإنساني بأن الأنسنة هي الهدف الذي يجب على الإنسان أن يحققه.

إن الإنسان العالمي المؤمن بالأنسنة يحاول التغلب على التجزئة التي خلقتها القومية على مرِّ العصور. فالجماعة البشرية يمكن أن تمتد كي

تشمل الإنسانية كلها، خاصة وان الأغلبية الساحقة من بني البشر باتت ترفض المنطلقات الفكرية النابعة من الشوفينية والعرق واللون والثقافة الواحدة. من هذا المنطلق نشير الى أن البشرية تقف على عتبة قفزة نوعية فريدة وثورية تحمل في طياتها بوادر قيام تعاون ومشاركة يطول كافة شرائح البشرية. والإنسان العالمي يمثل طليعة هذه القفزة.

إن المعرفة هي ميزة أساسية من مزايا العصر الحديث. فمجموعة المعارف الإنسانية اتسعت وتكاثرت بحيث يصعب على المرء أن يحيط بأكثر من ناحية واحدة ضيقة منها؛ كما أن انتشار التعليم والتربية بين جميع طبقات المجتمع جعل المعرفة بمتناول الجميع.

فالإنسان العالمي يجسد الإنسان المثقف ثقافة عالية. وتتميز ثقافة الإنسان العالمي بكونها ثقافة شاملة جامعة تتناول مختلف نواحي المعرفة. ثقافة الإنسان العالمي ثقافة سياسية ليبرالية عميقة تنبع من الحقيقة القائلة بأن المعرفة عالمية ومشتركة بين الجميع وهي الأساس الذي يمكن أن يعتمده الإنسان في تعاطيه مع أخيه الإنسان.

تخلو ثقافة الإنسان العالمي من شوائب الثقافة القومية الموجهة نحو شريحة انسانية واحدة وليس نحو الشريحة الكبرى ـ الإنسانية بمختلف أبعادها. تبشر هذه الثقافة بأن الإنسان أخ الإنسان وأن لا فرق بين انسان وآخر سوى بالمعرفة التي تنظر الى الإنسانية على أنها هدفها النهائي.

ومن ناحية أخرى، يؤمن الإنسان العالمي بضرورة تعزيز الإطار القومي للحياة الاجتماعية، لأنه تعبير عن روح الانتماء الى الجماعة. طبعاً يرى الإنسان العالمي ان الإطار القومي يجب الاّ يقف حجر عثرة للانطلاق الى العالمية الأوسع والأشمل، فالاختلاف بين الروح القومية والنزعة العالمية هو خلاف في الدرجة وليس بالنوع. فالقومية تنزع نحو الانتماء الى شريحة من الإنسانية، بينما العالمية تؤمن بأن الانتماء النهائي هو للبشرية جمعاء وليس الى شريحة واحدة منها.

من حيث المبدأ، يبدو أن الخلاف هو حول الشكل وليس المضمون، في الحقيقة أن القومية تطورت بحيث بات الولاء للأمة هو تجسيد الانتماء

النهائي للجماعة. وهذا خطأ. فالإنسان العالمي يقول إنه كما ذابت العائلة والقبيلة والمدينة ـ الدولة في الأمة ولا تناقض بينها، كذلك يمكن للأمة ـ الشريحة الصغيرة من البشرية ـ أن تذوب في الإنسانية. لكن الإنسان العالمي يقول بتعزيز الإطار القومي لأن من رحمه تخرج العالمية. فلا تناقض بين الولاء للأمة والولاء للإنسانية لأن الثانية هي امتداد للأولى.

إلا أنه إذا كان للقومية ان تنجح في خلع رداء التقوقع والانعزال والانطلاق الى آفاق الإنسانية، فلا بدّ لها أن تتقاطع وتتفاعل مع الانتماءات القومية الأُخرى. وكمرحلة أولى، يجب أن يأتي التقاطع والتفاعل على شكل تعاون وتكامل طوعي وليس على أساس نزاع وفرض وسيطرة وتنابذ لا يزول إلا بالقوة المطلقة. فالتعاون والمشاركة هما الخطوتان الضروريتان لتحقيق العالمية.

من هذا المنطلق، ينظر الإنسان العالمي الى الأنانية الجماعية كقوة خلاقة وليس كقوة هدامة، قوة تجمع ولا تفرق. بما أن الأنانية الفردية المعتدلة كانت في الماضي ولم تزل في الحاضر طاقة بناءة، هكذا يجب أن تكون الأنانية الجماعية. عظيمة هي إنجازات الأنانية الجماعية لما فجرّت من طاقات وحققت من أعمال. صحيح ان الأنانية الجماعية المتمثلة بالشوفينية سببت الكثير من الويلات، إلا أنها في الوقت ذاته كانت تقف وراء ما حققته البشرية من إنجازات في العلوم والآداب والتكنولوجيا واكتشاف الفضاء. إن المنافسة الإيجابية بين مختلف القوميات ساهمت في دفع عجلة التطور والتقدم. لذا، فالإنسان العالمي لا يود أن تنطفىء شعلة الأنانية الجماعية لأنها تبقى القوة المُحفِزة دائماً مهما كان شكل أو طبيعة الكيان الذي تعيش فيه الشعوب.

تنحو الأنانية الجماعية المقيدة بشعور عميق بالمسؤولية نحو ذاتها ونحو الآخرين الى رفع قيمة الإنسان. فما الانانية الجماعية سوى تعميم للأنانية الفردية التي تقبع وراء كبريات الإنجازات الإنسانية. لذلك، فالأنانية الجماعية متى ضُبطت وَوُجِّهَتْ بصورة بناءة نحو الخير والبركة ترفع من شأن المجتمع والفرد. نحن لا ننادي بإزالة الأنانية، الفردية

والجماعية، بل نقول بأن توجيهها التوجيه السليم حري بأن يبقيها قوة بناءّة وخلاقة ويحول دون إبراز سلبياتها.

يؤمن الإنسان العالمي بالأنانية الجماعية كطاقة بشرية هائلة يجب المحافظة عليها من أجل الإبقاء عليها كقوة دفع خلاقة تُبقي البشرية في موقع متقدم دائماً.

زيادة على ما تقدم، تشكل الوحدات القومية أساس النظام العالمي. فالإنسان العالمي يعتبر أن تخطي الوحدات القومية والانتقال من الجماعة الصغيرة داخل الأمة الى العالمية الواسعة أمر غير معقول، لأنه يتجاهل تطور حركة التاريخ والمجتمعات خلال القرون الماضية. فالأمة أو الوحدة القومية هي الأساس الذي تقوم عليه العالمية، وان التخلي عن السيادة القومية والولاء القومي لتحقيق العالمية يجب أن يأتي بصورة تدريجية طوعية برغماتية، تحاشياً لهيمنة قوة أو قوى قومية على ما عداها من قوميات.

مهما يكن الأمر، يرى الإنسان العالمي في الأمة أو الوحدة القومية المدخل الحقيقي للعالمية وليس العكس. قلنا سابقاً إن هدف العالمية النهائي هو قيام حكومة عالمية وإن ابقاء الوحدة القومية أساس العالمية والتخلي التدريجي عن السيادة القومية لمصلحة العالمية، هو السبيل القويم للوصول الى نظام عالمي عادل قائم على التعاون والمشاركة. في هذه المرحلة الانتقالية التي نسميها العالمية، يجدر أن تتسلح الوحدات القومية بسلاح التعاون والمشاركة، وذلك في سبيل تحقيق الذات والوصول الى العالمية.

لقد أثبتت الأحداث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أنه يمكن للوحدات القومية أن تحقق أهدافها السياسية والاقتصادية من طريق التعاون والمشاركة، فالمانيا واليابان على سبيل المثال حققتا الكثير من أهدافهما القومية دون اللجوء الى النزاعات والصراعات.

اذاً، الإنسان العالمي ينادي ويعمل من أجل قيام تقارب بين الأمم يكون المنفذ الى العالمية ومن العالمية الى الحكومة العالمية الفدرالية. لا بد لنا من القول هنا إن العصرنة وسيادة النظام الديمقراطي وانتشار الحرية

تساهم في خلق أجواء التعاون بين الأمم الديمقراطية أكثر من الأمم المتخلفة الأوتوقراطية، ونكاد نجزم ان تجذر الديمقراطية في المجتمعات كافة يمنع قيام النزاعات المسلحة بين الأمم ويحول دون قيام نزاعات داخلية تهدد السلم الأهلي وبالتالي تتحاشى الاستقطاب عند قيام الحروب الداخلية.

من الأبعاد الأخرى المؤثرة على الساحة الدولية والتعاون بين الأمم حوار الأديان. في السابق ـ نشأت الحروب تحت شعار الدين. مع أن مثل هذا الأمر بات غير وارد، الا ان عدم تعاون الأديان يحرم الأمم مؤثّراً حقيقيًا في سلوك القادة والشعوب. لذا، فالإنسان العالمي يقول بضرورة الانفتاح الديني وحوار الأديان، لأن أغلبية الأديان الرئيسية عالمية التوجه. لذا، يمكن أن يكون الدين داعماً قوياً وقوة محركة للعالمية.

من الثابت ان لا مجتمع من دون دين وان الدين يؤثر ويتأثر بالأجواء السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية السائدة. فكما كان الدين عوناً للقومية، يمكنه أن يكون عوناً للعالمية. فتعاليم المسيحية والإسلام والبوذية، وبدرجة أقل الهندوسية، عالمية الرؤية كونية التوجه. وبما أن الاختبار الديني واحد، لذا يمكن اتخاذ هذا القاسم المشترك وسيلة لتدعيم نظرة العالمية الى الكون والوجود، وخير وسيلة لتوحيد الجهد الديني هو إقامة حوار يهدف الى اكتشاف الأمور المشتركة التي تجمع وليس البحث عن الأمور المنفّرة التي تفرق. حوار الأديان بات مطلباً ملحاً، كما أن الحوار السياسي بات أمراً عادياً. فحوار الأديان يصب في خانة تعزيز العالمية وتعميق مفهوم الإنسان العالمي.

ومن أبرز خصائص العالمية تراجع مفهوم الأرض وأهميتها في العلاقات الدولية، طبعاً هذا لا يعني أن الأرض غير ذات أهمية للحياة وإنما تقول بأن الأرض باتت مشتركة وأن الخيرات لا تستمد فقط من عطاء الأرض. في الماضي كانت الأرض كل شيء بالنسبة للإنسان والأمة. الأرض لم تتغير دائماً، الذي تغير هو نظرة الإنسان لها. في العصر النازي، رأى هتلر ان في ضم الأراضي في اوروبا الشرقية وروسيا هدفاً

حقيقياً لتحقيق أهداف الأمة الالمانية. وألمانيا اليوم استطاعت أن تحقق الكثير من الأهداف الهتلرية دون أن تضم أرضاً، والحقيقة أنها تخلّت عن بعض أراضيها تحقيقاً لهذه الأهداف. وما ينطبق على المانيا ينطبق أيضاً على اليابان وأمم أخرى.

الأرض شيءٌ ضروريٌ للحياة كما أن المال ضروري للحياة. لكن ضم الأراضي بات أمراً غير ذي بال. لأن الهدف هو وجود الأراضي الكافية وليس «اكتناز» الأراضي من أجل الشهرة والمجد.

والإنسان العالمي يؤمن أن أراضي الكرة الأرضية وخيراتها باتت مشاعاً مشتركاً تأخذ منها الأمم والشعوب حاجتها وتطورها لخير الإنسان. فالأرض أمر بديهي لا مجال للعيش بدونها، لكن بدلاً من الطموح للحصول على الحد الأقصى يكتفي الإنسان العالمي بالحد الأدنى منها وان ما يعوزه من الخيرات الموجودة خارج كيانه يمكنه الحصول عليه من طريق التجارة الشريفة والتعاون الايجابي.

بالإضافة الى ما تقدم، للإنسان العالمي نظرة معينة الى شأني الحرب والسلم. أولاً، يرى الإنسان العالمي أن الحرب كوسيلة لفض النزاعات باتت وسيلة غير مجدية. فعلى صعيد الحرب الدولية وفي عالم يمتلك وسائل الدمار الشامل، يرى الإنسان العالمي أن الحرب باتت عقيمة، لأنه كي تكون الحرب العامة مجدية لا بدَّ من منتصر وخاسر. ففي حرب عالمية تستعمل فيها الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل الأخرى سيكون هنالك خاسرون فقط في أحسن الأحوال، اذ يمكن أن تؤدي مثل هذه الحرب أيضاً الى فناء الجنس البشري. ولا أظن عاقلاً يمكنه إعلان مثل هذه الحرب. كما أنه لا مجال هنا للخطأ.

كما أن الحروب الأخرى غير العالمية بين دول لا تمتلك أسلحة الدمار الشامل، ستُحصر من قبل الاسرة الدولية المؤثرة والأمم المتحدة بحيث تنتهي خلال فترة زمنية قصيرة، أو إذا امتدت زمناً طويلاً مثل الحرب العراقية ـ الايرانية في الثمانينات ستنتهي دون أن يحرز طرف نصراً كاسحاً يفرض من خلاله شروطه لحل النزاع.

من أجل ذلك، تبدو الحرب الى تراجع وربما الى زوال على الساحة الدولية. تبقى الحروب الأهلية والنزاعات الداخلية. ففي الدول الديمقراطية، تبدو هذه الحروب مستحيلة نظراً لأن الانظمة السياسية تسمح بالتغيير من خلال صندوق الاقتراع، فلا يوجد مبرر للجوء الى العنف والسلاح. أما في باقي الدول التي لم تبنِ صرحها الديمقراطي، يبقى هنالك خطر الحرب الأهلية لفض النزاعات الداخلية. لكن مع تطور النظم السياسية وانتشار الديمقراطية والوعي السياسي، ستتراجع وتيرة الحروب الأهلية، زد على ذلك أن الحروب الأهلية في الزمن الراهن عرضة للتدخل الخارجي وإحلال الوفاق من قبل الأسرة الدولية ومنظمة الأمم المتحدة. والحروب الأهلية التي قامت على أنقاض يوغسلافيا خير دليل على ذلك.

كل هذا يقودنا الى الاستنتاج بأن عالم الإنسان العالمي هو عالم أكثر سلاماً من أي وقت آخر. وان الحرب ستزول نهائياً مثل ما زالت النخاسة والاقطاعية من المجتمعات كافة. ولا ضير من أن يكون الخوف من الفناء او الخوف من قوى خارجية رادعاً لاندلاع الحروب على اختلاف أنواعها وأشكالها. فالمواطن العادي في مجتمع ما إنما يحافظ على القانون خوفاً من العقاب وليس لأي سبب آخر. ونتوقع ان يرتفع نفوذ القوانين الدولية بحيث تصبح نافذة، شأنها شأن القانون القومي.

وما إن تعتاد الأمم والشعوب على فض الخلافات بالوسائل السياسية الدبلوماسية، حتى يتعزز مفهوم السلم الدولي والسلم الأهلي ويتحول تفكير القادة والمواطنين نحو بناء السلام، لأنه كي يستقر ويثبت للسلام شروطٌ قاسية. عندها فقط يكتشف الجميع أن السلام يستحق كل هذا الجهد.

في مستهل حديثنا عن مفهوم الإنسان العالمي ومزاياه، أتينا على ذكر أهمية المعرفة والثقافة في حياة الإنسان العالمي. أما الآن فسنختتم هذا الفصل بالحديث عن تثقيف الإنسان العالمي سياسياً بحقائق الحياة المعاصرة. ان ثقافة السياسي والمواطن أساسية لإدارة شؤون السياسة

الخارجية. فلكل عصر مزاياه وخصائصه. فالعصر الذي نعيش فيه يختلف في أبعاده كافة عن العصور السابقة. لذا، لا بدّ أن تأتي ثقافة السياسي والمواطن منسجمة مع الواقع حتى تأتي سياسة الدولة الخارجية منسجمة مع وقائع العالم الخارجي.

ان الثقافة التي يجب ان يتزوّد بها السياسي والمواطن تلعب دوراً محورياً في حياة الوطن والعالم. لذلك يُطلب من الجميع أن يكونوا على درجة عالية من المعرفة والثقافة والإدراك، حتى لا يبرز قائد منحرف يقود المجتمع إلى الدمار.

الفصل التاسع

الإنسان العالمي
بشير النظام العالمي العادل

١ ـ تمهيد

يقودنا الحديث عن الإنسان العالمي الى الطريق التي يسلكها الرواد الأوائل لتركيز مفهوم جديد وأسلوب جديد في التفكير والعمل وكيفية الانتقال من مرحلة الى مرحلة، وبالتالي الوصول الى التصرف كطليعة لحركة شعبوية واسعة.إن فكرة الإنسان العالمي فكرة ثورية في حد ذاتها لأنها تتصدى لمفاهيم موروثة بالية تطول كافة شرائح البشرية وتنادي بأفكار إيجابية جديدة تختلف عن الآراء التقليدية السائدة، رغم كونها امتداداً طبيعياً لهذه الآراء.

إن فكرة الإنسان العالمي كبشير للنظام العالمي العادل تُرَكِز قبل كل شيء على المستقبل بجميع تشعُّباته الخافي منها والظاهر. إن الماضي والحاضر هما المدخل للمستقبل الذي يمثله الإنسان العالمي. إن أهمية الماضي تكمن في أنه يزودنا بالعبر والأمثلة، وأهمية الحاضر تكمن في كونه القاعدة التي سينطلق منها بشير المستقبل.

أخطر ما في فكرة الإنسان العالمي أنها تمثل تحدياً لمفاهيم سياسية واجتماعية وثقافية عريقة. إنها تهدد هذه المفاهيم وما يرتبط بها من مصالح عامة وخاصة. إنها ثورة تهز أركان الوجود الإنساني المتوارث من مئات وربما آلاف السنين. باختصار إنها خطر على مفاهيم حميمة مُسلَّم بها وهي غير قابلة للنقاش والتعبير لأنها تُعتبر مسلمات. لكن ياترى ما

هي حقيقة الإنسان العالمي الذي يُبشر بمجيء نظام عالمي جديد يختلف عن سواه من الأنظمة السابقة لكونه عادلاً؟.

٢ ـ الإنسان العالمي

إن الإنسان العـالمي هـو نموذج للمـواطن فـي كل بلدٍ أو أُمـة. وكنمـوذج هو يمثـل خصـالاً مجردةً جاءت حصيلة معاناة دامت سنين طويلة. إنها خصالٌ مثالية لما يجب أن يكون عليه المواطن الإنسان في مرحلة ما بعد القومية المؤدية الى العالمية. فالإنسان العالمي يجرد الإنسان القومي من سلبيات القومية ويزوده بمزايا جديدة تكون امتداداً للمزايا الايجابية للقومية.

وكنموذج للمواطن ـ الإنسان المثالي فهو أقلية في المجتمعات القومية لكنه مرشح، مع مضي الزمن، لأن يصبح المواطن العادي في فترة زمنية قياسية، لأنه يسير مع حركة التاريخ وليس ضدها. حركة التاريخ هذه تُنبىء بأن مسيرة البشرية تتجه بخطوات ثابتة نحو العالمية البرغماتية غير الطوباوية الخيالية: والإنسان العالمي هو تجسيد لهذه العالمية.

حَلَمَ الكثيرون في الماضي بقيام نظام عالمي عادل، لكن هذه الأحلام تحطمت على صخور الواقع المر. أما الإنسان العالمي فهو برغماتي واقعي يسير جنباً إلى جنب مع التطور والارتقاء الاجتماعيين والسياسيين والاقتصاديين والثقافيين. ففكرة العالمية التي بشّر بها الأنبياء والمفكرون والطوباويون منذ أقدم العصور، نضجت مع نهاية القرن العشرين فتحول الحلم الى حقيقة. إنها قضية وقت كي تصبح فكرة العالمية المفهوم السائد للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية.

إن قيام نظام عالمي عادل بات أمراً قريب المنال وعملية «استنساخ» الإنسان العالمي قائمة على قدم وساق. لكن نظراً لإن التغيير في المفاهيم السياسية والثقافية يحدث ببطء، فإن قيام النظام العالمي العادل سيستغرق بعض الوقت. إلا أنه في مطلق الأحوال لن يستغرق زمناً طويلاً.

ليس كل تغيير هو بالضرورة للأفضل، لكننا نجزم بأن الانتقال الى العالمية ومفاهيمها ومؤسساتها يشكل قفزة نوعية عريضة نحو الأفضل لأنها تلتقي والمثل الإنسانية والأخلاقية العليا. فترسيخ دعائم السلام الدولي وإقامة التعاون والمشاركة بدل الصراع والتنابذ وانتشار الأخوة الإنسانية، كل هذه، تمثل تطوراً إيجابياً يخدم مصالح جميع الشعوب والأمم. باختصار، هذا التطور يحمل الخير العميم للبشرية جمعاء.

من ناحية أخرى، سيستمر النظام العالمي العادل العتيد الذي يجسده الإنسان العالمي متجذراً، ولو مؤقتاً، في المفهوم القومي. طبعاً إن شعور الانتماء الى الجماعة الذي يمثل حجر الزاوية في المفهوم القومي لن يزول أبداً. فالانتماء إلى الجماعة جزء لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية بغض النظر عن المفاهيم والأطر السياسية والثقافية السائدة. لكن النظام العالمي العادل يبقى متجذراً في المفهوم القومي من زوايا أخرى. فمؤسسة الأمة ـ الدولة وما يصاحبها من حقائق مثل السيادة القومية واللحمة القومية والأمة ـ الدولة، هي الوحدة التي يتألف منها النظام العالمي وهي دائماً على حق ولا سلطة تعلو عليها، وان المصالح القومية تبرر كل عمل يحافظ على هذه المصالح... الخ، جميع هذه الحقائق تبقى جزءاً من الإرث الذي على الإنسان العالمي أن يصارع من أجله بهدف قيام النظام العالمي العادل.

حتى مطلع التسعينات من القرن العشرين كان توازن القوى هو المبدأ الذي قام عليه النظام العالمي. ومبدأ توازن القوى يمنع هيمنة دولة واحدة على القرار السياسي القائم، بحيث تتفوق تلك الدولة على ما عداها من دول. على الرغم من مختلف مساوىء مبدأ توازن القوى، يبقى وجوده أرحم من غيابه، فتوازن القوى يسمح للدول كافة، والدول الصغيرة خاصة أن تستقوى بغيرها من الدول. وخير مثال لتوازن القوى الذي كان قائماً بين الولايات المتحدة من جهة والاتحاد السوفياتي من جهة ثانية، إذ حال رغم الصراع الذي ولدته المنافسة، دون هيمنة احدى الدولتين العظميين، وما إن زالت الحرب الباردة وانتصرت الولايات المتحدة، حتى برزت هيمنة

دولة واحدة على مصير العالم. ونظراً لأن منطلقات أيّ دولة مهما علا شأنها، تبقى متجذرة في الحفاظ على مصالحها الأنانية الخاصة وتعزيز هذه المصالح على حساب غيرها من الأمم والدول، لذا، فالوضع الذي تبع الحرب الباردة جاء أكثر عشوائية. طبعاً نحن لا ننادي بعودة الحرب الباردة ونظام توازن القوى. كلاهما غير عادل وغير منصف، لأنهما يستمدان حيويتهما إما من النزاع والمنافسة غير الشريفة أو من الهيمنة المطلقة لدولة أو مجموعة من الدول على القرار العالمي، إننا ننادي بالنظام العالمي العادل القائم على التعاون والمشاركة والإنصاف. طبعاً يشكل هذا الهدف بُعداً طوباوياً في الوقت الحاضر. لكن الإنسان العالمي الذي يُجسد المبادىء الأخلاقية المفقودة في الوضع العالمي القائم، يحمل في حناياه بذور نظام عالمي جديد قائم على مبدأ المساواة والمشاركة والعدالة بين الأمم.

إن الإنسان العالمي هو صورة أصيلة للمواطن المُجرد من رواسب القومية المتطرفة والأنانية الجماعية المفرطة. هو الطريق والأسلوب والهدف لبروز الإنسان المكتفي والمطمئن والآمن؛ هو الإنسان الذي يعيش حياة هانئة غير مهددة بالاضطرابات والنزاعات والحروب النفسية والصراعات المسلحة، هو الإنسان الذي بإمكانه أن يخطط لحياته بصورة مطمئنة وتخدمه خططه طيلة أيام حياته. هو الإنسان العالمي الذي لا يبشر بمجيء النظام الكامل، لأن مثل هذا النظام غير ممكن نظراً لنقائص الطبيعة البشرية. إنه يبشر بمجيء النظام الذي بمقدور الأمم والشعوب أن تقيمه ضمن إمكانات الطبيعة البشرية إذا ما تحلى الإنسان - المواطن بالحد الأدنى من العقلانية والعدالة والمحبة.

ان الدارس لأسباب الحروب ودوافعها التي تمثل تحول النزاعات الدائمة الى صراعات دموية تخريبية، يجد ان الحروب تندلع في أغلب الأحيان لأسباب ودوافع غير مجدية. فالحروب دائماً هدامة حتى للمنتصر، أما الحروب المعاصرة، إن بالأسلحة التقليدية أو بأسلحة الدمار الشامل، فقد حرمت المنتصر حتى نشوة الانتصار. فالنزاعات

تقوم وتندلع الحروب لطغيان الروح العدوانية والهيمنة على التفاعل الإنساني. طبعاً إن غياب سلطة عالمية تفض النزاعات بين الدول هو سبب رئيسي لتحول الخلافات الى نزاعات مسلحة. لكن غياب مثل هذه السلطة لا يفسر مظاهر الحرب كافة. إن اللجوء الى العنف أمر طبيعي لدى الإنسان عندما يسمح الإنسان لغرائزه ان تطغى على سلوكه، وما الدولة سوى وحدة تجسد الأمة يوجه دفتها قادة لا يختلفون في تكوينهم عن المواطن العادي الذي بإمكانه ان يتصرف بانضباط وتسامح ومحبة إذا شاء. فقادة الدولة بمقدورهم ان يحولوا دون تحول الخلافات الى نزاعات مسلحة وأن يتحلوا بروح التعاون والتسامح والمحبة عوضاً من التنابذ والكراهية في تصريف شؤون دولتهم.

إن الإنسان العالمي يمكن أن يترك أثراً على الساحة الوطنية والنظام العالمي حالما يجد طريقه الى سُدة القيادة. بكل تأكيد، الإنسان العالمي القائد لا يستطيع عمل الكثير بمفرده ما لم تويده شريحة كبيرة من المواطنين في بلده ويلقى تجاوباً من قادة الدول الأُخرى الفاعلة والمؤثرة في القرار الدولي.

إن مهمة الإنسان العالمي كمواطن أو كقائد ليست بالمهمة السهلة. عليه أن يصارع ضد القوى التقليدية ومراكز القوى في الداخل والخارج. عليه أن يتحلى بالشجاعة والجرأة والإقدام حتى يتمكن من اختراق حاجز الشك والريبة والكراهية والتنابذ.

تتجاوب طروحات الإنسان العالمي مع طروحات العالمية. فالعالمية لها رصيد كبير، بعضه قديم وبعضه الآخر حديث. والأديان الكبرى وعظماء المفكرين القدامى والحديثون والإرث الماركسي ومبادىء منظمة الأمم المتحدة والمنظمات العالمية الأخرى وجمعيات السلام العالمية وملايين المواطنين الموزعين على الدول والأمم كافة، يدعمون مجيء الإنسان العالمي. اذن، إن الإنسان العالمي ليس وحيداً في المعركة مع الأنانية الجماعية المتطرفة، بل هو مدعوم من شريحة عريضة من المؤسسات والمفكرين والأفراد الذين يعيشون العالمية بأبعادها كافة.

نظراً للتطور التكنولوجي الهائل في صنع الأسلحة الفتاكة وأسلحة الدمار الشامل، برز شعور لدى شريحة كبيرة من قادة الأمم والشعوب بأنه لا بدَّ من التعاون والمشاركة بين الدول كافة إذا كان لا بدَّ للبشرية ان تنجو من الهلاك. فالرادع النووي المتبادل في الحرب الباردة حال دون اندلاع حرب كونية شاملة، لكن في حال استمرار النزاع في ظروف أخرى، لا بد من أن يستعمل السلام النووي وأسلحة الدمار الشامل الأخرى. إن انتشار السلاح النووي يحمل في طياته بعدين متناقضين: البعد الأول، إمكانية استخدامه من قبل البعض، والبعد الثاني، إمكانية منع اندلاع الحرب بسبب توازن الرعب لدى جميع الأطراف. مهما يكن الأمر، فإن وجود اسلحة الدمار الشامل وإمكانية امتلاكها من قِبَلِ عدد كبير من الدول، وخطر هذه الاسلحة على السلام العالمي والبقاء الإنساني، جميع هذه التطورات تدفع بالبشرية وقادة البشرية الى إعادة النظر في أسس تعاملها وفي أساليبه وأهدافه.

إن إعلان الحرب أمر سهل إذا ما قيس بإرساء قواعد السلم. لكن ارساء قواعد السلام ممكن للإنسان إذا ما توفرت النيّة الحسنة والشعور بالأخوة الإنسانية. إن النظام العالمي العادل الذي يبشّر به الإنسان العالمي هو المدخل للسلام العالمي الدائم.

إن الإنسان العالمي هو حصيلة تعليمه وثقافته. فالتربية الإنسانية والمدنية والسياسية التي يتلقاهاالمواطن في البيت والمدرسة والمجتمع تطبعه بطابعها. وبما أن القادة والمواطنين الذين يتفاعلون هم الذين يوجهون حياة الأمة في الداخل والخارج، وان تربية المواطن المؤهل لكي يصبح الإنسان أو المواطن العالمي تلعب دوراً حاسماً في هذا السياق. وهذا الأمر ينطبق على كل المجتمعات التي تقوم فيها أو داخلها أنظمة سياسية مختلفة.

إذاً، إذا شئنا أن ندرب انساناً عالمياً يؤمن بالتعاون والمشاركة والأخوة الإنسانية، يتحتم علينا أن نُولي المجتمع والدولة تربية الأجيال الطالعة. إن الإنسان العالمي لن يظهر بقوة وشمول ما لم نتابع تحضير المواطنين

تحضيراً واعياً على مدى أجيال. إن على القادة السياسيين وقادة الفكر ان يُجمعوا الرأي بأن الإنسان العالمي المتعاون والمشارك والمؤمن بالسلام هو الهدف النهائي لقيام النظام العالمي الشامل.

ان الوضع العالمي الراهن الذي لا تستطيع وصفه بالنظام العالمي، إنما يؤسس لهيمنة دولة واحدة أو مجموعة دول متجانسة على ما عداها من دول. إنه أمر غير طبيعي. لكن لهذا الوضع بعداً ايجابياً، إذ إنه يقوم في أجواء مؤاتية يمكن أن تسير نحو العالمية. فالعالم الراهن متكامل ومتداخل اقتصادياً وثقافياً وإعلامياً لكنه غير متكامل سياسياً. زد على ذلك أن هنالك قضايا مصيرية مطروحة، مثل التلوث البيئي والتفجر السكاني ومشكلة الفقر والجوع وندرة الموارد الطبيعية وأزمة الطاقة ومستقبلها، لا يمكن معالجتها جذرياً الا إذا تطورت الهيكلية السياسية القائمة نحو قيام تعاون طوعي بين جميع الأطراف والدول. لا بد للوضع العالمي القائم أن يفضي إلى نظام عالمي قائم على التعاون والمشاركة فيكون الإنسان العالمي طليعة هذه المسيرة الخيرة.

نرى أن المرحلة الراهنة هي مرحلة انتقالية ستؤدي الى نظام توازن قوى قائم على توازن الرعب بل الى نبذ مبدإ توازن القوى والهيمنة الأحادية، لأنهما باتا مفارقة تاريخية لا تنسجم ومسيرة العالم كله نحو نظام طوعي تعاوني مشارك تجد فيه القيم الاخلاقية والمثل الإنسانية متنفساً طال انتظاره.

ولو شئنا أن نلخص خصائل الإنسان العالمي نجد أنها تنحصر بالمزايا التالية:

١ ـ إنه مواطن مثقف ثقافة عميقة وواسعة.

٢ ـ انه انسان متحرر من الشوفينية وما يتصل بها من مساوىء.

٣ ـ إنه انسان مفكر من الطراز الأول يتمتع باستقلالية القرار والتحليل.

٤ ـ إنه مواطن مؤمن بإنسانيته التي تسبق أي ايمان آخر.

٥ ـ إنه الإنسان الذي لا يجد تناقضاً بين ولائه للإنسانية وانتمائه الى جماعة قومية أو دينية أو اثنية.

٦ ـ إنه الإنسان الذي يؤمن بأن للجاهل حقاً على المثقف ـ والفقير حقاً على الغني، وللضعيف حقاً على القوي.

٧ ـ إنه الإنسان الذي يكره العنف بجميع أشكاله ويؤمن بالسلام والتسامح والمسالمة على اختلاف أشكالها.

٨ ـ إنه الإنسان الذي يؤمن بأن الأخلاق تلعب دوراً حاسماً في حياة المواطن داخل المجتمع القومي، وبالتالي فهي تلعب دوراً مميزاً على صعيد علاقات الدول والأمم.

٩ ـ إنه الإنسان الذي يرفض مقولة الحرب العادلة، لأن جميع الأطراف في أيّ حرب يتحملون مجتمعين وزر هذه الحرب.

١٠ ـ إنه الإنسان الذي يؤمن بأن الإنسان مخلوق مرن يمكن أن يجترح المعجزات متى صمّم على ذلك.

١١ ـ إنه الإنسان الذي يعتقد جازماً بأن الرياضة البدنية والموسيقى والأدب والفن والفلسفة هي نشاطات تبعده عن شرور النزاعات والحروب والصراعات.

١٢ ـ إنه الإنسان الذي يمثل حركة التاريخ التي تسير نحو قيام المواطن العالمي.

الفصل العاشر

النظام العالمي القائم على فكرة الإنسان العالمي

١ - تمهيد

إن مشروع الحكومة العالمية العتيدة، السلطة الدولية الفاعلة التي تحول دون تطور النزاعات الى حروب وتفض الخلافات قبل استفحالها، ما زال مشروعاً بعيد المنال ينعته البعض كضرب من الخيال والطوباوية غير العملية والتي نعتقد جازمين أنه أمرٌ ممكن في المستقبل غير البعيد. لكن يمكن الإشارة الى أنه بين الفوضى الدولية السائدة حالياً وبين قيام الحكومة العالمية تبرز معالم نظام عالمي نَصِفُهُ بالعادل، لأنه لا يزيل الفوضى بصورة كاملة ولا يستتب معه النظام بصورة تامة. هذا النظام العالمي الذي نتحدث عنه ما هو سوى مرحلة انتقالية بين الفوضى الدولية، أي غياب السلطة المركزية العالمية، والحكومة العالمية. إنه نظام يقوم على انتشار واتساع رقعة القائلين والعاملين لمجيء الإنسان العالمي، نظام يقوم على إبقاء البشرية تعيش أجواء الرعب المتبادل من دون وقوع حروب دولية شاملة.

في هذا الفصل سنتحدث عن النظام العالمي القائم على فكرة الإنسان العالمي. وسنأتي على بعض أهم أعمدة هذا النظام وبعض تفاصيله. سندعو هذا النظام بالنظام العالمي العادل.

٢ ـ النظام العالمي القائم على فكرة الإنسان العالمي

في هذه المرحلة الانتقالية، سينحسر دور الولايات المتحدة، وطبعاً فهو لن يزول نظراً لأن امكانات الولايات المتحدة هائلة في أي ظرف من الظروف وستستمر تلعب دوراً حاسماً في أي نظام مستقبلي. جل ما في الأمر أن دورها الآحادي الطاغي الحالي والذي برز بعد خسارة الاتحاد السوفياتي الحرب الباردة أمامها، سيتراجع كثيراً ويغيب.

أما سبب انحسار الدور الأميركي فيرجع الى تراجع الولايات المتحدة اقتصادياً وسياسياً بصورة نسبية نتيجة لبروز مراكز قوى عالمية جديدة على الساحة الدولية تشاركها في القرار الدولي من جهة، وتنافسها اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وثقافياً من جهة ثانية. مراكز القوى العالمية هذه بدأت بالظهور في الوقت الراهن بفاعلية وتأثير كبيرين. مراكز القوى هذه ستأخذ شكل تكتلات سياسية واقتصادية وعسكرية أو اتحادات فدرالية بين مجموعة من الدول او تحالفات او تقارب وتضامن.

إن النوع الأول من مراكز القوى هو كومنولث الدول المستقلة الذي يتألف من روسيا والجمهوريات السوفياتية السابقة. وهو مرشح لأن يصبح ذا فاعلية مع تغلب روسيا على سلبيات التحول الاقتصادي من الاشتراكية الموجهة الى اقتصاد السوق التي تعاني منها حالياً. ونعتقد ان اكثرية مشاكل التحول هذه ستنتهي في غضون السنوات العشر او الخمس عشرة القادمة. عندها فقط ستخلف روسيا دور الاتحاد السوفياتي السابق وفق المعايير الاقتصادية والسياسية نفسها القائمة في اوروبا والولايات المتحدة واليابان. حتى لو لم تنجح روسيا في تفعيل كومنولث الدول المستقلة، فإنها بقدراتها الذاتية قادرة أن تستعيد دور الاتحاد السوفياتي السياسي والعسكري الغابر وتلعب دوراً إيجابياً في النظام العالمي القادم.

إن النوع الثاني من مراكز القوى هو الاتحادات التي يمكن ان تتم بين دول كبرى عدّة، كالاتحاد الأوروبي القائم بين عدد كبير من الدول الأوروبية والتي أبرزها المانيا وبريطانيا وفرنسا. وعلى الرغم من

التناقضات الكثيرة التي تقلق بال الأطراف، فإن الاتحاد الأوروبي مرشح لأن يصبح وحدة فدرالية كاملة تضم أكثر من ٣٥٠ مليون نسمة وطاقة اقتصادية وسياسية وعسكرية وتكنولوجية ضخمة في غضون العقد القادم. فمع قيام الاتحاد الكامل، ستجد الدول الرئيسية، التي تؤلف هذا الاتحاد والتي تأتمر منفردة بإمرة الولايات المتحدة حالياً، نفسها في موقع قوة يؤهلها بتحدي الهيمنة الأميركية الراهنة ومنافستها في قيادة العالم.

إن نجاح الاتحاد الأوروبي في تحقيق الوحدة الكاملة سيكون قدوة تحتذي بها الدول الأخرى في القارات المختلفة والتي تربطها أواصر اثنية ولغوية وثقافية ودينية، مثل الدول العربية وبعض دول اميركا اللاتينية والدول الافريقية والدول الإسلامية.

إن الاتحاد الأوروبي العتيد مع روسيا ناهضة بحُلة جديدة، سيقلبان ميزان القوى العالمي ويبدل المعادلة القائمة حالياً. فأوروبا الموحدة تملك من الطاقات الاقتصادية والبشرية ما يفوق الطاقات الأميركية. فإذا اجتمعت الطاقة الأوروبية مع القدرات الروسية حصل اختلال كبير في ميزان القوى والنفوذ لن يكون لصالح الولايات المتحدة.

إن النوع الثالث من مراكز القوى يشمل التحالفات القائمة والتي يمكن أن تقوم في المستقبل المنظور. بعض هذه التحالفات اقتصادي في الأساس، لكنه مرشح لأن يتدرج بحيث يتحول الى تحالفات سياسية وعسكرية. يندرج تحت هذا النوع من التحالفات اتفاق «نافتا» NAFTA الاقتصادي الموقع بين الولايات المتحدة والمكسيك وكندا بقصد توسيع النشاط الاقتصادي التجاري بين هذه الدول. وكذلك التقارب الاقتصادي والسياسي بين دول جنوب شرق آسيا ASEAN وأيضاً دول حوض الباسفيك التي تعيش أجواء تعاون اقتصادي حقيقي، وهي تشمل الصين وكوريا الجنوبية وسنغافورة وتايوان.

ومع تخلي الصين عن الاقتصاد الموجَّه واعتماد اقتصاد السوق، يمكن أن تتعزز أواصر التعاون الاقتصادي بين الصين واليابان. إن الحوض

الباسيفيكي الذي يشمل اليابان والدول الصناعية الجديدة مرشح **لأن** ينافس الولايات المتحدة اقتصادياً وربما سياسياً وعسكرياً في المستقبل غير البعيد.

أما النوع الرابع والأخير من مراكز القوى في النظام العالمي الجديد فيضم دول العالم الأخرى التي تسعى جاهدة الى التقارب والتضامن. مثل هذه المحاولات كثيرة وتشمل منظمة دول اميركا، الجامعة العربية، منظمة الوحدة الافريقية ومنظمة المؤتمر الاسلامي. لكن هذه الدول ستبقى على هامش الحياة الدولية الاقتصادية والسياسية والعسكرية لزمن طويل.

باختصار، تضم هيكلية النظام العالمي الجديدللقوى الفاعلة كلاً من الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي، روسيا، وحوض الباسيفيك Pacific Rim الذي يشمل الصين واليابان بالدرجة الأولى. وتجدر الإشارة بهذا الصدد الى ان الصين بمفردها مرشحة لأن تصبح دولة عظمى في السنوات القادمة، كما ان اليابان باستطاعتها ان تكون دولة عظمى إذا تخلت عن سياستها الحالية القائمة على عدم بناء قوة عسكرية مستقلة.

ان النظام العالمي المرشح للظهور خلال فترة زمنية قصيرة هو نظام متعدد الأقطاب Multipolar سيخلف الوضع القائم على هيمنة طرف واحد على القرار العالمي. في هذا المجال، تحاول الولايات المتحدة اتباع سياسة مرنة تُبقي زعامتها غير منقوصة.

فهي تحاول أن تستوعب او تؤخر أو تمنع قيام هذه الأقطاب من لعب دور رئيسي في السياسة الدولية. فهي مثلاً تحاول استيعاب التحرك الأوروبي بواسطة توسيع مهمات حلف شمال الأطلسي وتبديلها بعد ان زال الخطر من الشرق، بحيث تبقي لها الكلمة الأخيرة في اوروبا. إن حلف شمال الأطلسي الذي هو حلف عسكري بالدرجة الأولى مرشح لأن يتحول الى حلف اقتصادي ـ عسكري بزعامة الولايات المتحدة.

ومن ناحية أخرى، تحاول الولايات المتحدة ان تُبقي اليابان ـ العملاق الاقتصادي والقزم السياسي والعسكري ـ في بيت الطاعة الأميركي

بحيث لا تنفرد اليابان في قرارها السياسي والعسكري وتسلك طريقاً منفرداً مستقلاً أو تقترب من الصين ودول حوض الباسيفيك الأخرى بهدف خلق تكتلات جديدة.

والأمر ذاته ينسحب على روسيا. فروسيا التي تعاني التخبط الاقتصادي وعدم الاستقرار السياسي وضبابية الرؤية المستقبلية، تجد صعوبة في خطب ودِّ الولايات المتحدة. إن روسيا التي تملك ترسانة هائلة من الأسلحة النووية والتي تنتهج سياسة تابعة وغير مستقلة في الوقت الراهن، يمكن أن تشق عصا الطاعة بعد ان تستكمل تحولها الاقتصادي والسياسي. تجدر الإشارة هنا الى أن روسيا تمكنت في الماضي من الانتقال من التخلف الى العصرنة خلال مدة قصيرة وبجهودها الخاصة وهي قادرة اليوم أن تكمل التحول من جديد حتى لو لم تَلقَ الدعم اللازم من الخارج، وخاصة من الولايات المتحدة وأوروبا واليابان.

هذه هي هيكلية النظام العالمي القائم على فكرة الإنسان العالمي. أما مضمون هذا النظام فهو أقل وضوحاً وأكثر غموضاً. سنتحدث الآن وباختصار عن الجانب غير الظاهر للعيان والذي لا توليه وسائل الإعلام كما ولا كُتّاب العلوم السياسية الاهتمام الكافي.

يختلف النظام العالمي القائم على فكرة الإنسان العالمي عن الأنظمة السابقة، وخاصة نظام الحرب الباردة وتوازن القوى، فهو لن يقوم على مبدأ الصراع بل التنافس السلمي البنّاء. وستتراجع حدة النزاعات بين فرقائه بحيث سيبرز توازن قوى يحول دون قيام حرب عالمية جديدة قائم على التعاون، شأنه شأن توازن الرعب الذي هيمن على علاقات الشرق والغرب. وتمشياً مع المفهوم القائل بأن الحرب هي غير مجدية كأداة لفض الخلافات، ستتراجع حدة الحروب المحلية والاقليمية في البلدان الأخرى التي تعيش على هامش هذا النظام، لأن أطراف النظام الفاعلين سيتبعون سياسة مسالمة لا تشجع على الحرب بل تنبذها لأنه لا مصلحة لها فيها وهي ضدها من حيث المبدأ.

يركز النظام العالمي هذا على أن السلام العالمي هدف استراتيجي

نبيل يجب العمل من أجله. فلوقت قصير مضى، كانت الحرب وسيلة مشروعة لتحقيق الأهداف السياسية بوسائل غير سياسية، ولم يشغل السلام حيزاً هاماً من تفكير القادة الوطنيين. فعُرِّف السلام بأنه الفترات القصيرة بين الحروب المتتالية. ومع النظام العالمي القائم على فكرة الإنسان العالمي، ستُحَّرم الحروب ويرفع من شأن السلام العالمي على أنه الهدف النهائي لعيش البشرية في أجواء من الوئام والتعاون. طبعاً لن تزول الحروب بين الدول، كما ولا الحروب الأهلية والنزاعات العنيفة الداخلية، لكنها ستكون محصورة وقصيرة الأمد.

كذلك ستشهد الساحة الدولية في ظل مفهوم الإنسان العالمي انتشار الديمقراطية في كل مكان واحتراماً أكثر للحرية وحقوق الإنسان، ونتيجة لذلك سينحسر تدخل القوى الكبرى في شؤون الدول الصغيرة كما نشهد اليوم في الاتحاد الأوروبي. سيكون لانتشار الديمقراطية وانحسار التدخل في الشؤون الداخلية وتراجع الحروب مردودٌ ايجابي، إذ سيتعزز التعاون الدولي على جميع الأصعدة؛ باختصار، ستكون الأجواء أقرب الى السلام منها في أي وقت مضى.

سيحتل النظام العالمي هذا موقعاً وسطاً بين الطوباوية والواقعية. إنه نظام برغماتي يجمع بين مثالية الطوباوية وعملانية الواقعية. إنه الأقرب الى الناحية الايجابية من الطبيعة البشرية. فالإنسان، من حيث المبدأ، كائن مسالم إذا ما أُحسِن توجيهه. وفي هذا السياق لا بدَّ من أن نؤكد أنَّ تحقيق سلم عالمي دائم وحقيقي وليس بالإكراه، يتطلب جهداً ومثابرة وخيالاً وإمكانات بالقدر نفسه من الجهد لخوض الحرب. ان السلام العالمي يتطلب انضباطاً كبيراً ولجماً للعواطف على صعيد الدول والقادة الوطنيين والمواطنين العاديين.

ومن زاوية أُخرى، إن مفهوم الإنسان القومي سيتبدل بصورة جذرية بحيث يحافظ على إيجابية الانتماء الى الجماعة القومية وينبذ سلبيات الشوفينية وتوابعها. وستتطوَّر القومية باتجاه العالمية بصورة متوازنة بحيث يُحافظ على روح الجماعة الصغيرة دون الوقوع في شطط الانزواء والانعزال.

في ظل هذا النظام العالمي، ستستمر الأمة ـ الدولة Nation - State بأن تكون الوحدة السياسية التي تتألف منها أجزاء النظام. لكن هذه الوحدات السياسية ستتحول، مع مضي الوقت الى وحدات ادارية واقتصادية أكثر من كونها وحدات سياسية. كما وان الأمم ـ الدول التي لم تتم فيها عملية الصهر السياسي والاجتماعي، ستتابع مسيرة تطورها فينضج الانصهار ويتعزز. بكلام آخر، يجب بلورة المفهوم القومي قبل أن تنطلق مسيرة العالمية، لأن القومية مرحلة ضرورية لا يمكن تخطيها وحرق مراحل التطور والتقدم.

أخيراً، إن النظام العالمي القائم على فكرة الإنسان العالمي هو نظام منفتح بين أطرافه. فانفتاح التكتلات بعضها على بعض سياسياً واقتصادياً وتكنولوجياً وثقافياً، يسمح بتعزيز التعاون والمشاركة اللازمين لتدعيم توجهات السلم على جميع الأصعدة.

بكلمات قليلة، إن النظام العالمي المنشود والقائم على مفهوم الإنسان العالمي، يبشر بقيام أجواء سياسية واقتصادية وثقافية على صعيد العالم ككل، تحمل في طياتها الاستقرار والسلام والخيرات وأملاً كبيراً بأنه من خلال التعاون، يمكن للبشرية أن تواجه المشاكل العالمية المشتركة بثقة ونجاح.

الفصل الحادي عشر

النظام العالمي العادل

١ ـ تمهيد: في العدالة الإنسانية

حتى وقت قصير، اقتصر مفهوم العدالة على المواطن داخل البلد الواحد، ونادراً ما تعداه خارج هذا الإطار. كما أنه لم يتجاوزه ليشمل العدالة بين الدول والشعوب. فمحاكمات نورنبرغ بعد الحرب العالمية الثانية، ومحاكمات لاهاي الجارية والمتعلقة بالبوسنة والجرائم ضد الإنسانية الأخرى، هي أمثلة نادرة عن محاكمات تخطَّت الطابع الداخلي للعدالة. لكن رغم ايجابياتها تبقى هذه الاجراءات «سلبية» لأنها عدالة إحلال العدل بعد وقوع الحدث وليست محاولة للحؤول دون وقوع الظلم وقبل حصوله.

إن النظام العالمي العادل يقوم على المفهوم القائل بأن الوقاية خير من العلاج، أي إنه على الدول أن تتصرف بتجرد وبإنصاف قبل وقوع الخلل والضرر. فالنظام العالمي العادل هو النظام الذي يقوم على مبدأ المساواة في الفرص والاحترام المتبادل لحقوق الآخرين ومد يد العون للضعيف والفقير، من منطلق الواجب الإنساني وليس من منطلق الحسنة.

في ظل النظام العالمي العادل يُصبح الاستغلال والهيمنة شيئاً من الماضي وتعم العدالة جميع بني البشر دون تمييز او تفرقة، عدالة نجدها اليوم فقط داخل الدول المتطورة والديمقراطية؛ علماً بأنه يجب إلاّ يغيب عن ذهن الجميع أننا جميعاً ضيوف على هذه الأرض، وأن الشعور

بالسعادة هو أعمق المشاعر الإنسانية قاطبة. ولكي تعم السعادة يجب أن تعم المحبة والعدالة. إن في مقدور القادة المواطنين أن يتصرفوا بعدل وإنصاف إذا شاووا ذلك ويجعلوا من سنوات نشاطهم على الأرض نعمةً للجميع. فالبشرية جمعاء توّاقة الى السعادة والعدالة والمحبة، وهذه جميعها بمتناول الجميع في أي موقع كانوا، وبخاصة قادة الدول وأعوانهم. فباسم العدالة الإنسانية الشاملة نتحدث عن النظام العالمي العادل، وإن جميع الدلائل تشير الى أن المجتمع الإنساني يسير نحو حياة انسانية أفضل تُبشر بالخير العميم للبشرية جمعاء.

٢ ـ النظام العالمي العادل

إن مبدأ تكافؤ الفرص بين الأفراد في المجتمع المدني الواحد يصلح لأن يطبق بين الدول. إن المساواة في الفرص بين الوحدات التي يتألف منها النظام العالمي العادل، مع الأخذ بعين الاعتبار فروقات الأدوار والأحجام، تصلح لتكون المبدأ في بنية النظام.

إن مبدأ تكافو الفرص بين الدول في النظام العالمي العادل يضمن لكل طرف وفريق دوراً ايجابياً بناءً. إنه يسمح لكل وحدة ضمن النظام أن تحقق ذاتها في إطار عريض يصبح معه التفاعل شاملاً حدود الأرض وأبعاده البشرية جمعاء. هذاالمبدأ المُحَقِق للذات الوطنية يمهد الطريق الى ولاء أوسع يتطور تدريجياً حتى الوصول الى الحد الأقصى، أي الولاء للإنسانية.

إن مبدأ تكافؤ الفرص هذا يشكل المدخل للتدرج من الانتماء الى الأمة الى الانتماء الى الإنسانية. وعند حصول مثل هذا الأمر يمكن أن نحلم بالطروحات الطوباوية القائلة بالحكومة العالمية وربما أبعد.

من ناحية أخرى، إن النظام العالمي العادل يمهد السبيل الى ثورة في التفكير والمشاعر والسلوك على صعيد القادة الوطنيين والمواطنين العاديين. هذه الثورة في التفكير والمشاعر والسلوك تمهد بدورها لخلق رأي عام محلي وعالمي. وانه من واجب الدول المتطورة والغنية أن تساهم مساهمةً فعّالةً في مساعدة الدول الأقل تطوراً وثراء. ويتمّ مثل هذا الأمر

بتخصيص جزء كبير من ميزانيات الدول المتطورة لرفع شأن الدول المتخلفة، إذ لدى الدول المتطورة فائض من القدرات تحتفظ به لنفسها الآن لدواعٍ أنانية غير عقلانية. إن تحقيق مثل هذا التحول في التفكير والمشاعر والسلوك يتطلب إعادة النظر في الوضع الإنساني العام ومراجعة للنفس غير متوافرة بجدية وشمول في الوقت الراهن.

كذلك، يعمل النظام العالمي العادل على اعتماد التحكيم الإلزامي لحل الخلافات والنزاعات بين أطراف النظام. ونظراً لعدم وجود المؤسسات الاجرائية التنفيذية، يكتفي قبول التحكيم طوعياً الذي يسانده رأي عالمي واعٍ «يفرض» قبول قرارات التحكيم.

ومع التحكيم الإلزامي يأتي الانصياع لقرارات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والأجهزة الأخرى التابعة لها. لكن كي تأتي قرارات الأمم المتحدة ملزمة، يجدر أن تُتّخذَ هذه القرارات بحرية تامة من دون ممارسة الضغوطات من قبل الدول الكبرى.

وتتمة للتحكيم الالزامي والانصياع لقرارات المنظمات والأجهزة الدولية، لا بد للقانون الدولي أن يحتل مركزاً في علاقات الدول التي تشكل النظام العالمي. إن التقاء هذه الروافد الثلاثة بخدمة النظام العالمي العادل، يمهد الطريق لقيام أجواء مريحة داخل النظام، ما يبعث الأمل بتمهيد الطريق لقيام قوة شرطة دولية تشرف على تنفيذ قرارات التحكيم والمنظمات الدولية والقوانين الدولية.

رغم الأمل الكبير الذي يعتمر في النفوس، تبقى مسيرة النظام العالمي العادل محفوفة بالمخاطر والعقبات أهمها: غياب «كتاب التاريخ» الموحد لاختلاف القادة والمفكرين على مضمونه. وهو الكتاب الذي يَسْرد بصورة موضوعية مسيرة تطور البشرية وتقدمها، والذي يعتمد في التربية العالمية للمواطنين والقادة. إن كتاب التاريخ الموحد يساهم في بلورة الرؤية الإنسانية السليمة الضرورية لخلق أجيال تنظر الى العالم على أنه كُلٌّ متكامل، وأن الإنسان أخ الإنسان وإن اختلف في الهوية السياسية والثقافية وفي اللون والعرق والدين.

ومن العقبات الكؤود التي تواجه مسيرة النظام العالمي العادل أيضاً إقصاء المرأة عن موقع القرار ومراكز القيادة. طبعاً، خطت المرأة خطوات واسعة في هذا المجال، لكنها ما زالت خطوات متواضعة إذا ما قيست بالنفوذ الهائل الذي يحتفظ به الرجل لنفسه. إن هيمنة الرجل على مراكز القيادة ومواقع القرار واحتكاره لها على مر العصور، حرم البشرية أفكاراً ربما كانت غيّرت وجه التاريخ لو سمح لها بالبروز. إن نصف البشرية ما زال غير ممثل تمثيلاً صحيحاً في القيادة ومواقع القرار. فإذا كان للنظام العالمي أن يصبح أكثر عدالة وأقل تحيزاً، فلا بد للمرأة من أن تتبوأ مراكز القيادة شأنها شأن الرجل. عندها فقط تستقيم الأمور وترتفع الآمال بأن البشرية تسير الى الأمام بخطى ثابتة وواثقة.

هنالك عقبة أُخرى تعترضُ مسيرة النظام العالمي العادل. إنها الجهل وإخفاء الحقائق وانتقائية المعلومات عن مختلف المجتمعات القومية. إن نجاح النظام العالمي العادل يكمن في الدرجة الأولى في نشر الحقيقة الخالصة، لأن الجهل وإخفاء الحقائق وانتقائية المعلومات تحول دون الوصول الى الهدف. إن المسألة مسألة فكرية بحتة.

فالجهل عدو الإنسان الأول، وخصوصاً القادة الوطنيين وجميع القياديين الآخرين. إنه عدو المواطن العادي الذي يساهم من خلال رأيه في صنع القرار وتوجيه القادة. فالشعب الجاهل يُوّلي عليه قادة جهلة، والعكس صحيح. كما وأن باستطاعة القادة والشعب المتنورين ان يجترحوا العجائب وكبار الأعمال. إن مسيرة النظام العالمي العادل يجب أن تقوم على المعرفة الحقيقية بأبعادها كافة.

أما الوجه الآخر لهذه العقبة فهو إخفاء الحقائق عن الناس من قبل القادة والإعلاميين، لأهداف غير شريفة، مثل استمرار الوضع الجائر وبقاء هيمنة حفنة من الناس في سدة القيادة للدولة والمجتمع. إن إخفاء الحقائق ما هو سوى مؤامرة على المواطنين كافة. لحسن الحظ إن مثل هذه العملية باتت مرفوضة في المجتمعات المتطورة الديمقراطية، ومع استمرار عملية التطور وانتشار الديمقراطية باتت امكانية إخفاء الحقائق

أمراً صعباً للغاية. فانتشار التعليم ووسائل الإعلام المتطورة مهّد الطريق للتغلب على أي محاولة من هذا النوع.

أما أخطر وجوه هذه العقبة فهو انتقائية المعلومات. فباسم المصلحة الوطنية والحرية تلجأ الدول في كثير من الأحيان الى حجب الحقيقة الكاملة من طريق نشر معلومات دون معلومات أخرى ليست في صالح الحكم والمتربعين على سدة الحكم. ومما يساهم في نجاح القادة في مثل هذا العمل احتكار الدولة لوسائل الإعلام داخل بلدها، ما يمهد الطريق لبروز أجيال نصف متنورة هي أخطر من الأجيال الجاهلة، فالمواطن الذي يحيا بظل هكذا نظام يعتقد أنه مطلع اطلاعاً كاملاً على الحقيقة ودخائل الأمور وهذا شر مطلق.

إذا كان للنظام العالمي العادل أن يسود ويتعزز، يجب أن يرتكز في الدرجة الأولى على المعرفة الكاملة غير المجتزأة، إذ إن نصف الحقيقة والمعرفة الجزئية هما أخطر على الإنسان وبيئته الاجتماعية والفكرية والسياسية من الجهل.

باختصار، إن النظام العالمي العادل شيءٌ قادم. لكن كي يسود ويستتب دونه عقبات كثيرة جئنا على ذكرها ولا بد من إزالتها. وهي لن تزول ما لم يُعِدْ كل مواطن في أي موقع كان وفي أي مجتمع وُجد النظر في «جعبته» الفكرية وتطلعاته الفوقية. إن القومية مدخل الى العالمية وليست نهاية بحد ذاتها. إن التخلي عن العنجهية القومية والاحتفاظ بروح الانتماء الى الجماعة القومية أمران مرغوبان. وإن النظام العالمي العادل آت لأن حركة التاريخ تسير في هذا الاتجاه. وجميع التطورات السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية والتكنولوجية تُدَعِّم هذا الاتجاه.

الفصل الثاني عشر

بين العولمة والعالمية

Globalization and Internationalism

إن العولمة ظاهرة قديمة ـ جديدة. فهي تعود الى بداية عصر الاكتشافات والتوسع التجاري مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر عندما اتضح للكثيرين أن الكرة الأرضية والبشرية تشكلان وحدة كاملة. ومع قيام الثورة العلمية والنجاح التكنولوجي في صُنع وسائل سريعة للتنقل والاتصالات، اتسعت آفاق الإنسان في كل مكان وتعمق مفهوم وحدة الكون. وقد واكب هذه التطورات ظهور النظريات الاقتصادية والمالية والتجارية التي ساهمت في دفع قطاعات الصناعة والزراعة والخدمات نحو آفاق جديدة. فاتَسَعَ مجال التبادل التجاري والمالي بحيث وصل الى أبعد زوايا الكرة الأرضية.

لكنَّ العولمة باتت أمراً ممكناً فقط مع اتساع انتشار التلغراف والتلفون والطائرة والسيارة ثم الراديو والتلفزيون والبث الفضائي والكومبيوتر والإنترنيت. إن معظم هذه التسهيلات كان موجوداً قبل انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١، لكن العولمة لم تبرز كظاهرة قوية إلا بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وظهور الولايات المتحدة كالقوة العظمى الوحيدة على الساحة الدولية. لم يكن بإمكان الولايات المتحدة أن تستقطب اهتمام الجميع بمفردها في الوقت الذي كان الاتحاد السوفياتي ينافسها فيه على زعامة العالم، وعلى أثر تراجعه برزت الولايات المتحدة كالقوة المهيمنة على قرار الحرب والسلم، والسياسات

الاقتصادية وعلى الشؤون الثقافية في العالم وإن بدرجة أقل شمولاً.

وبدت الرأسمالية المدعومة من الولايات المتحدة وأوروبا واليابان السبيل الأوحد للنظام الاقتصادي في العالم. ونظراً لعولمة الرأسمالية واقتصاد السوق ونظراً الى أن الغرب، بما فيه اليابان، بزعامة الولايات المتحدة فرضت على جميع الدول أن تنصاع لنصائح وقرارات الهيئات الاقتصادية الدولية، كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية... الخ، ومما عزز موقع العمالقة الاقتصادية كون الشركات الخمسمئة العملاقة المتعددة الجنسية تنتمي الى ثالوث الولايات المتحدة وأوروبا واليابان.

باختصار، إن العولمة هي ترابط المجتمعات والدول وتكاملها على الكرة الأرضية سياسياً واقتصادياً وثقافياً مكونة قرية كونية واحدة. فالذي يحدث في مكان ما على سطح البسيطة يثير اهتمام الجميع ويؤثر في مجريات الأمور في جميع المجالات.

ومما زاد من أهمية العولمة كظاهرة إنسانية شاملة، ارتباطها وتزامنها مع نهاية الحرب الباردة، حيث عاشت السياسة الدولية بقطبية ثنائية طيلة ٤٥ سنة، واستبدالها (أي الحرب الباردة) بنظام آحادي عُرف بـ «النظام العالمي الجديد» والذي تتزعمه الولايات المتحدة. رغم مشاركة كل من اوروبا واليابان في النظام العالمي الجديد، إلا ان الولايات المتحدة هي صاحبة القرار الأخير في الشؤون كافة العائدة الى العولمة. لذا يجب أن ننظر الى العولمة والنظام العالمي الجديد على أنهما وجهان لعملة واحدة. فالعولمة هي الوسيلة لتحقيق هدف النظام العالمي الجديد الذي هو، في الأساس، الأداة التي تحقق فيها الولايات المتحدة سيطرتها وهيمنتها على القرار العالمي في شتى الميادين.

كثيرون يرون ان النظام العالمي الجديد ليس بالنظام العالمي لأنه يقوم على كون الولايات المتحدة اللاعب المهيمن الوحيد على القرار العالمي، ولكي يكون النظام نظاماً لا بد من وجود أكثر من لاعب واحد. من هنا ينظر البعض الى النظام الراهن على أنه مرحلة انتقالية سيتبعه نظام

متعدد اللاعبين. ومن هذا المنطلق يرى البعض ان ارتباط العولمة بالنظام الآحادي أساء الى العولمة التي هي ظاهرة صحية لأنها أدت الى انفتاح دول العالم بعضها على بعض. وهذا أمر محمود لأن الانفتاح والترابط والتكامل تحمل في طياتها الخير العميم للبشرية إذا لم يصاحبه الاستغلال والهيمنة. وقد وُصفت الرأسمالية من خلال العولمة المطبقة حالياً بالرأسمالية المتوحشة لأنها تظهر أبشع صفات الرأسمالية.

وقد تركت العولمة المرتبطة بالنظام الأحادي أسوأ الأثر، خاصة في دول العالم الثالث النامية، لأنها أدت الى ظهور تناقضات ومشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية. فمن خلال السياسات الاقتصادية وجدت معظم هذه الدول تعاني من تبعية على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والثقافية، وبرزت في الدول النامية مشاكل اجتماعية واقتصادية بحيث احتكرت فئة صغيرة الثروة، بينما الأغلبية الساحقة تعاني الحرمان والفقر والبطالة. كما أن العولمة لم تساهم في تحقيق الاستقرار السياسي بل حدث على العكس، ازدياد الاضطرابات الداخلية في أكثر من بلد. فالتنمية المتوازنة والمستديمة التي يجب أن ترافق العمل الرسمي والشعبي، غابت عن مجريات الحياة في معظم هذه الدول.

إن العولمة ظاهرة انسانية طبيعية لتطور العلم والمعرفة والمجتمعات. إنها تواكب حركة التاريخ، لكنها تشكو غياب المسؤولية التي تترتب على المدرك العالم تجاه الجاهل، والغني تجاه الفقير، والقوي تجاه الضعيف. إن عنصر المشاركة مفقود في العولمة لأن خلفية القيادين الفاعلين على الساحة الدولية ما زالت قائمة على المفهوم القومي وليس على المفهوم الإنساني العالمي. فعلى الصعيد الاقتصادي تستأثر دول قليلة وشركات عملاقة تنتمي الى هذه الدول بخيرات البشرية، وقد نتج عن ذلك زيادة غنى الاغنياء وتردي حال المحرومين. أدى غياب عنصريْ المسؤولية والمشاركة عن سياسات العولمة الى تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ليس فقط في دول العالم الثالث النامية، بل أيضاً في الدول المتطورة والمتقدمة اقتصادياً.

في ظل العولمة الراهنة، تراجع أيضاً دور الدولة وعطاءاتها الى الحد الأدنى، بينما المطلوب تعزيز دور الدولة، خصوصاً على الصعيد الاجتماعي. كما وأن سياسة الخصخصة ضاعفت من نفوذ الرأسمالية المتوحشة، بينما يتوجب الحد من هذا النفوذ. إن «ايديولوجية» حرية السوق بدون قيود وضوابط أساءت الى التنمية الصحيحة وبالتالي الى الحد من الخلل في توزيع الثروة الوطنية.

وقد أدت السياسات المطبقة في الشأن الاقتصادي الى الاضطرابات الاجتماعية والسياسية، فوجدت الديمقراطية، وهي نظام سياسي سليم، نفسها فريسة للسلطوية والنبذ وعانت الحرية الأمرين على أيدي أنظمة جائرة تنادي بالديمقراطية والحرية، بينما تعمل على هدم كل ما يمتّ اليهما بصلة.

من هنا ننطلق لنقول إن العولمة كمفهوم إنساني يهدف الى انفتاح وتعاون الشعوب والدول، هي ظاهرة صحية لكنها استُخدِمَت لتنفيذ مآرب وأهداف مشبوهة من قبل اللاعبين الرئيسيين على الساحة. فلكي تجد العولمة سبيلها القويم على الساحة الدولية يجب أن يواكبها نظام عالمي عادل قائمٍ على المشاركة يدعمه إحساس عميق بالمسؤولية الإنسانية. لقد أصبح الكون سفينة واحدة يواجه ركابها مصيراً واحداً قاتماً إذا لم يتعاونوا ويتكاتفوا ويضحوا من أجل نجاة الجميع. هذه هي العولمة الصحيحة الخالية من كل شائبة.

ففي حين تتراوح سياسات الدول الفاعلة والقائدة على الساحة الدولية بين الأنانية المطلقة والمشاركة النسبية، يبقى المطلوب الآن مراجعة هذه السياسات وإجراء محاسبة ذاتية تتحدد على أثرها نوعية الحياة على الكرة الأرضية لأغلبية سكان هذا الكوكب. فالعولمة تعاني آثار الانحراف والاستئثار على المستوى العالمي. والمطلوب مراجعة ضمير، مراجعة تؤثر على مستقبل البشرية بحيث تؤدي الى تعاون ومشاركة حقيقيّين. فحتى يستقيم الوضع يجب أن تقوم العلاقات الدولية على مفهوم قانونيٍّ وأخلاقي واضح وسليم، وإلا ستبقى العولمة نقمة بدلاً من أن **تكون نعمة.**

من أجل ذلك، تختلف العولمة عن العالمية. فالعولمة المُطبَّقة حالياً تشارك العالمية في الشكل بينما تناقضها في المضمون. العالمية تقوم على التعاون والمشاركة وتكافؤ الفرص بين مختلف المجتمعات والدول. العالمية والعولمة تمثلان أعلى مراتب الانفتاح، لكن هنا يتوقف الشبه. فالعالمية تنادي بالأخوة الإنسانية، بينما العولمة تطبق أسوأ أنواع الاستغلال، إذ لا يكفي زيادة الانتاج والسلع بل يجب ان تصل نِعَمُ الإنتاج الى الجميع وليس احتكارها من قبل حفنة من الدول أو الشركات أو الأشخاص.

يمكن للعولمة والعالمية أن تصبحا مفهوماً واحداً متى تحررت العولمة من الخلل الأساسي الذي تشكو منه وهو الاستغلال والاحتكار والاستئثار بالثروة. إن نبذ هذا الخلل يسمح بالمشاركة بكل شيء توفره الثروة. فالسلطة العادلة والديمقراطية الصحيحة والحرية المسؤولة والعيش الرغيد، تَستقيم متى قام نظام اقتصادي اجتماعي سليم ونظام عالمي عادل.

إن العولمة مرحلة انتقالية، بينما العالمية هدف نهائي تجري حركة التاريخ في اتجاهه. إن مسؤولية تصحيح مسار العولمة تقع على عاتق الجميع من دون استثناء، لكننا نُحمّل قادة الفكر والسياسة والاقتصاد مسؤولية خاصة. فالعولمة، كما العالمية، قدر لا مناص منه. لكن هذا القدر يصبح أمراً جميلاً متى باتت طروحات العولمة هي ذاتها طروحات العالمية.

الجزء الثالث

النظام العالمي والمستقبل

الفصل الثالث عشر

النظام العالمي العادل
وما بعد

١ ـ تمهيد

إن النظام العالمي كيان عضوي يؤثر ويتأثر بالبيئة العالمية التي تحيط به. إنه ليس بالشيء الجامد غير المتحرك، بل هو تنظيم مرن يتكيَّف مع المحيط الموجود فيه. وبما أن الظروف المحيطة بالنظام السابق ـ أي نظام الحرب الباردة ـ عملت على تبديل الوضع، كان لا بد من قيام نظام جديد يخلف النظام السابق ويتكيَّف مع الظروف الجديدة التي تغلف العالم. إلا أن «النظام» الذي خلف نظام الحرب الباردة جاء نظاماً هجيناً إذ إنه تعوزه خصائص النظام الأصيل كافة. وفي نظرنا، يعيش العالم فراغاً سياسياً على مستوى النظام العالمي، لأن ما هو قائم هو وضعٌ معين وليس نظاماً.

لا بدَّ لهذا الوضع أن يتغيَّر لأنه مرحلة انتقالية موقتة ستؤدي لقيام النظام العالمي العادل المتعدد الأقطاب. إن الوضع الراهن بالنسبة للنظام العالمي هو وضع شاذ لا بدّ أن يزول مهما طال أمده.

إن النظام العالمي العادل الذي تحدثنا عنه في الفصول السابقة مرشح لأن يملأ الفراغ الذي تشكو منه الساحة الدولية. وهذا النظام هو مرحلة أخيرة على المدى المنظور لمسيرة النظام العالمي سيؤدي، كما نتوقع، الى مرحلة جديدة سنتحدث عنها لاحقاً.

٢ ـ النظام العالمي العادل وما بعد

الدولة أو الحكومة هي النظام الأمثل الذي توصل إليه الإنسان لترتيب «بيت» المجتمع. فالدولة ليست فقط المؤسسة المهمة بين مؤسسات المجتمع بل المؤسسة الأهم. لذا يجد الباحث في الشؤون الدولية السياسية والنظام العالمي نفسه وبصورة عفوية يشبّه النظام العالمي الأمثل بالحكومة العالمية أو الدولة العالمية. لذلك بعد رسم ملامح النظام العالمي العادل الذي نتوقّع ظهورهُ بصورة جَلية خَلَفاً للوضع الراهن ملء للفراغ الذي تشكو منه الساحة الدولية، يتجه بناء الفكر الى المدى البعيد. ففي هذا السياق نتجرأً ونتكهن بأن النظام العالمي العادل ما هو سوى المرحلة الأخيرة قبل ولوج نظام الحكومة العالمية.

نتوقع أن تمر الحكومة العالمية بمرحلتين: المرحلة الأولى مرحلة الحكومة الفدرالية الاتحادية، والمرحلة الثانية مرحلة الحكومة المركزية.

ستأتي الحكومة الفدرالية الاتحادية كامتداد للمرحلة السابقة مرحلة النظام العالمي العادل. فبعد إحلال التعاون والمشاركة بين الدول عوضاً من النزاع والتنابذ، لا يوجد هنالك من سبب يحول دون قيام اتحاد بين الكتل والدول الأخرى. وبما ان هذه الدول ستبقى عندها بعض الشكوك، ولمنع دولة أو كتلة من الكتل من الانفراد بالسلطة، تبرز الفدرالية الاتحادية كالنظام السياسي الأمثل لهذه المرحلة.

في المرحلة الفدرالية من الحكومة العالمية ستحتفظ كل دولة بالكثير من السلطة الحكومية «المركزية» فبذلك تزول كل الحساسيات المُنَفِّرة من الحكومة العالمية والعيش المشترك. ونتوقع أن تستمر هذه المرحلة زهاء نصف قرن من الزمن، حتى يشعر قادة هذه الدول بالاطمئنان على مصير بلدهم.

في هذه المرحلة ستحتفظ كل دولة بالإطار الخارجي والكيان السياسي الذي يخصها، لكنها ستتنازل تدريجياً عن دورها البوليسي العسكري للحكومة الفدرالية، لأنه يكون قد جرى تسريح الجيوش وتفكيك البنية العسكرية. في هذه المرحلة تزول وزارة الخارجية

والاختصاصيون في الشؤون الدولية، لأن جميع القضايا المطروحة تصبح قضايا داخلية. أما أهم ثوابت المرحلة الفدرالية فهو احتفاظ كل دولة بكيانها السياسي السابق.

أما مع المرحلة الثانية، أي المرحلة المركزية، فمن نظام الحكومة العالمية، تصبح الكيانات السياسية تقسيمات ادارية لا طابع سياسيًا خاصًا لها؛ وبذلك تتم وحُدة البشرية في كيان سياسي واحد، وذلك بعد أن زال معظم التحفظات والحساسيات السابقة.

أما أهم عقبة يمكن أن تعكر صفو الحكومة العالمية، فهو تحول الكيان العالمي الى قومية أرضية بمواجهة كيانات أُخرى يمكن أن توجد على كواكب أُخرى، تقوم الاكتشفات في الفضاء بالبحث عنها، أو أن تكتشف هذه الكيانات الفضائية كيان الأرض. طبعاً إن هذا ليس ضرباً من الخيال لأنه من الممكن وجود مخلوقات ذكية على سطح بعض الكواكب الأخرى.

الفصل الرابع عشر

خاتمة

لقد قطعنا شوطاً كبيراً معاً منذ الكلمات الأولى لهذا البحث. وقد أردنا أن يعيش القارىء الأجواء التي نحياها ونختبرها يومياً. هدفنا كان رسم صورة واقعية لوضع العلاقات الدولية ونحن على مشارف حقبة جديدة تمثل أكثر من مجيء قرن جديد. تمثل نمطاً في التفكير والاقتراب من الشأن الدولي. هذه الحقبة الجديدة تمثل بروز رؤية جديدة لما سيكون عليه العالم في المستقبل المنظور.

حاولنا توضيح هذه الرؤية الجديدة بكل أبعادها خدمة للتعاون والسلام الدوليين. هدفنا ليس الكتابة من أجل الكتابة بل من أجل حث القارىء لتبني هذه الرؤية والعمل بموجبها في أي موقع كان. توجهنا الى القارىء بأفكارنا من أجل إثارة رغبة قوية لديه حتى يشارك أيضاً في بلورة هذه الأفكار ونشرها. فالقارىء مدعو اذاً الى الإدلاء بدلوه لأن هذه الرؤية بحاجة الى جهود الجميع وأفكارهم حتى تكتمل. فالرؤية التي نتحدث عنها ليست كلاماً منزلاً بل مشروعٌ أوّليٌّ بحاجة الى تطوير وتهذيب.

إن العالمية تقف بمواجهة القومية. اذ لا حل وسط بينهما. فإما أن تتحقق انسانية الإنسان ويعيش بمحبة ووئام، او أن تبقى انسانية الإنسان رهينة الشوفينية والأنانية الجماعية المتطرفة، فيستمر الناس في نزاعاتهم وحروبهم. إن بمقدور الإنسان أن يرتفع الى أعلى مراتب السمو

أو يهبط الى أسفل دركات الكراهية والانحطاط. حتى اليوم، اختار الإنسان الخيار الثاني ـ لكن هنالك فئة، وإن قليلة، تعمل من أجل العالمية الأصيلة التي لا تألو جهداً في نشر رسالة التعاون والمشاركة والمحبة.

إن الخيار الأول، خيار انسانية الإنسان، هو المستقبل. إن الطريق اليوم واضحة، فإما أن يختار الإنسان العالمية ويعيش بكل سعادة وهناء، أو يتابع تمسكه بأنانية القومية الجماعية فينقرض. حتى إذا قُدر له أن يستمر على قيد الحياة، فإن حياته ستكون تعيسة ومحفوفة بالمخاطر والعذاب. فأي خيار ستتبنى؟ هذا هو السؤال الذي حاولنا الإجابة عنه.

الإنسان العالمي

يُشكل كتاب «الإنسان العالمي» الحلقة الرابعة والأخيرة من رباعية شملت لحد الآن: «جولة في القضايا الدولية المعاصرة» و«لبنان: اليوم والغد» و«بين الغربنة والأسلمة». إن «الإنسان العالمي» يرصد حركة التاريخ واتجاهها بالنسبة للنظام العالمي ويدل إلى المرحلة التي وصل إليها هذا النظام اليوم ويشير إلى ما سيؤول اليه في المستقبل.

وفق تصور الكاتب، إن مرحلة العولمة الراهنة تشويه للعالمية التي تطمح إليها الإنسانية حتى يستوي النظام العالمي العادل. كما وأن الإنسان العالمي هو تجسيد لطموحات المجتمع الدولي ومثُله من أجل قيام تعاون ومشاركة حقيقية بين أطراف الأسرة الدولية.

إن المرحلة المقبلة من عمل المؤلف تضم دراستين ميدانيتين حول قضيتين تشغلان بال اللبنانيين. الدراسة الأولى تعالج موضوع هواجس المسيحيين العرب وهمومهم على ضوء التطورات المحلية والإقليمية. والدراسة الثانية تدور حول موضوع حزب الله بعد الإنسحاب الإسرائيلي من لبنان ومستقبل الحزب كنموذج للحركة الإسلامية المعاصرة. تصدر الدراسة الأولى مطلع العام ٢٠٠١ والدراسة الثانية في الربع الأخير من العام نفسه.

72

